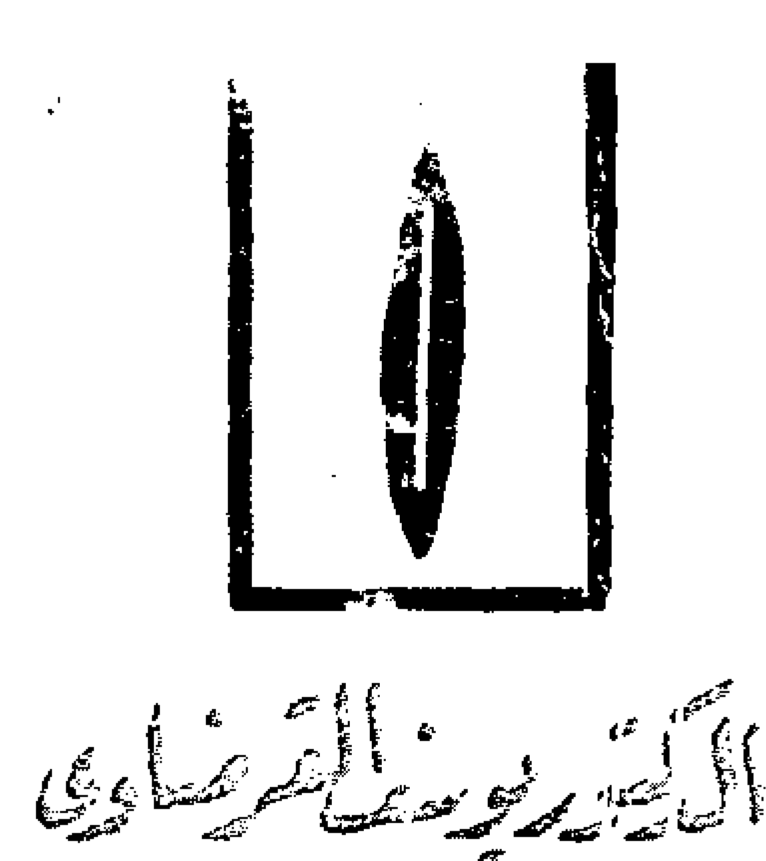


الدكتور يوسف القرضاوي

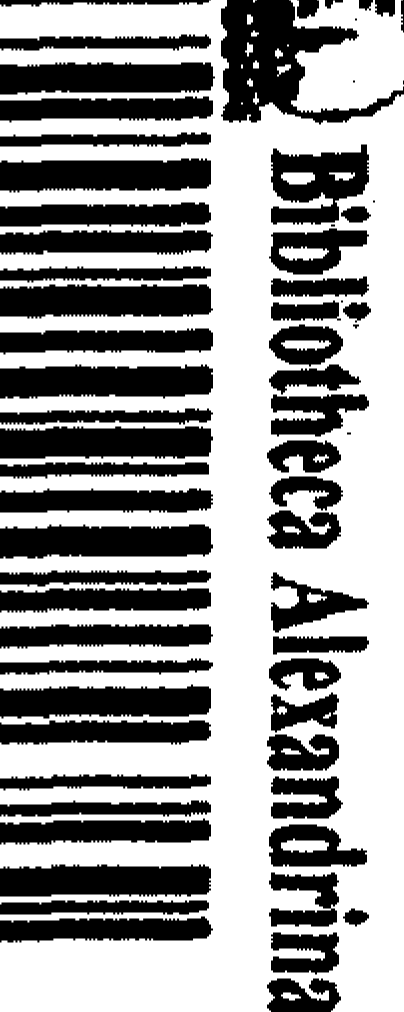
عقائد الإسلام

(٣)



حقيقة التوحيد





الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون : ٣٩١٧٤٧٠

عقائد الإسلام
(٢)

حقيقة التوحيد

الدكتور يوسف القرضاوي

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون : ٣٦١٧٤٧٠

الطبعة السابعة

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

تم الجمع
بمكتب اليُســـر لخدمات الكمبيوتر
القاهرة - ت : ٢٤٤٩٧٠٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإيمان بالله أصل العقائد كلها

إن الإيمان بالله - أي بالذات الغيبية العلوية المختارة القاهرة الجديرة بالطاعة والعبادة - هو روح الدين ، أي دين ، وكذلك هو روح الإسلام ، وأصل عقائده كلها ، كما بيَّنها كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

فهذا القرآن الكريم حين يتحدث عن أركان الإيمان ومتعلقاته يجعل الإيمان بالله أولها وأصلها كما في قوله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (٢) وقوله : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ (٣) .

---

(١) البقرة : ٢٨٥ (٢) البقرة : ١٧٧ (٣) النساء : ١٣٦

والرسول الكريم يقول في حديث جبريل المشهور حين سأله عن الإيمان : « الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره » .

فالإيمان بالله هو الأصل ، وكل أركان العقيدة الأخرى مضافة إليه وتابعة له ، فأنت بعد أن تؤمن بالله جل شأنه ، تؤمن - بالتالي - بملائكته وكتبه ورسله ولقائه وحسابه وقضائه وقدره . فالإيمان بهذه كلها فرع عن الإيمان بالله ، ومبني عليه . ولا يتصور الإيمان بالرسول إلا بعد الإيمان بالمرسل ، ولا بالجزاء والحساب إلا بعد الإيمان بالمجازِي والمحاسِب .

والإيمان بالله ، يتضمن الإيمان بوجوده بالضرورة ، والإيمان بوحدانيته في رُبوبيته وأُلوهيته . . والإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، التي يتجلى فيها اتصافه بكل كمال يليق به ، وتنزهه عن كل نقص . .

وقد تبين لنا من دراستنا السابقة : أن وجود الله تعالى حقيقة لا ريب فيها ، بل هي أظهر الحقائق على الإطلاق ، شهدت بذلك الفطر السليمة ، ودلت على ذلك العقول الرشيدة ،

وأكد ذلك الراسخون في العلم بما شهدوا في الآفاق وفي أنفسهم من عجائب الإبداع والتسوية والتقدير والهداية .

وإذا كانت هذه الحقيقة الكبرى قد خفيت على بعض الناس ، فذلك على نحو ما قيل : من شدة الظهور الخفاء .

وإذا كان آخرون قد كابروا الفطرة المشتركة بين البشر ، وعاندوا منطق العقل والعلم ، وجحدوا بالله تعالى ، فهم بمثابة الشذوذ الذي يثبت القاعدة ولا ينفيها .

* * *

• تركيز الإسلام على التوحيد :

والحق أن الإسلام لا يركز على الإيمان بوجود الله تعالى لاعتباره ذلك ضرورة فطرية ، ولكنه يركز غاية التركيز على عقيدة أخرى ، ضل الناس في شأنها ضلالاً بعيداً . وتلك هي عقيدة التوحيد التي هي لب عقائد الإسلام ، وروح الوجود الإسلامي : الإيمان بإله واحد فوق هذا الكون ، له الخلق والأمر، وإليه المصير ، هو رب كل شئ ، ومدبر كل أمر ، هو وحده الجدير أن يُعبد ولا يُجحد ، وأن يُشكر ولا يُكفر ، وأن يُطاع ولا يُعصي ، ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ

فاعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل * لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ (١) .

لقد جاء الإسلام والشرك بالله ضارب أطنابه في كل أنحاء العالم ، ولم يكن يعبد الله وحده إلا أفراد قلائل من الحنفاء في جزيرة العرب ممن يتعبدون على ما بقى سالماً من ملة إبراهيم ، أو بقايا من أهل الكتاب ، سلموا من تأثير التحريفات الوثنية التي أفسدت الأديـــان الكتابية .

وحسبنا أن نعلم أن أمة كالعرب في جاهليتها غرقت في الوثنية إلى أذقانها . حتى إن الكعبة التي بناها محطم الأصنام لعبادة الله وحده/بات في جوفها وحولها ثلاثمائة وستون صنماً ، وحتى غدا في كل دار من دور مكة صنم يعبده أهلها .

بل روى الإمام البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال : «كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الحجر الآخر (١) فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة ، فحلبنا عليه ، ثم طفنا به » !

وأكثر من ذلك أنهم كانوا يتخذون إلهاً من « العجوة » ،

(١) الأنعام : ١٠٢ - ١٠٣

وكثيراً ما كان يصطحبه أحدهم في سفره ، فإذا فنى زاده وغلبه الجوع لم يجد بداً من أن يأكله ! وإلى هذا النوع من الآلهة يشير القرآن بقوله : ﴿ وإنْ يَسلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ الطَّالبُ والمطْلوبُ ﴾ (١) .

وفي بلد كالهند بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس لميلاد المسيح ، حتى قُدِّرَ عدد الآلهة حينئذ بـ ٣٣٠ مليوناً .

حتى الأديان السماوية دخلتها الوثنية فكدرت صفاءها ، ولوثت نقاءها ﴿ وقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ اللهِ ﴾ (٢) فالمسيح عند النصارى إله حق من إله حق !

وهذا لون من الشرك انتشر في كثير من الأمم أن لله أبناء أو بنات يُعبدون من دون الله ، أو مع الله ، كما زعم ذلك الهنود قديماً مع كريشنا وبوذا . وكما زعم العرب بالنسبة للملائكة الذين قالوا عنهم : بنات الله ! وفي ذلك يقول القرآن : ﴿ وقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحمَنُ وَلَداً ، سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَولِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) الحج : ٧٣ (٢) التوبة : ٣٠ . (٣) الأنبياء : ٢٦ - ٢٨

من أجل هذا عنى الإسلام كل العناية بالدعوة إلى توحيد الله تعالى ، علماً وعملاً ، ومقاومة الشـــرك اعتقاداً وســـلوكاً : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

* * *

• دلالة الفطرة على وحدانية الله تعالى :

لقد دلت على وحدانية هذا الإله وتفرده كل الدلائل فطرية وعقلية وسمعية . فالإنسان إذا تُرك لفطرته وجبلته - دون تدخل أو تلقين - يجد نفسه متجهاً إلى قوة عليا فوق الإنسان وفوق الكون ، يدعوها رَغَباً ورَهَباً ، ولا سيما عندما تأخذ بخناقه الشدائد ، وتعصف به الكروب ، وينفض يده من عون الناس من حوله . هنالك يتجه مخلصاً إلى ربه ، طارحاً ما كان يتوجه إليه- بتأثير الوهم ، أو الجهل ، أو الهوى ، أو البيئة - من آلهة زائفة من البشر أو الحيوان أو النبات أو الجماد !

وهذا ما أشار إليه القرآن فيما ذكرناه من قبل من قصة ركاب الســفينة المشــرفة على الغرق : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ

(١) البقرة : ١٦٣

وَجَاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١) .

وقد ذكرنا هذا مثلاً باعتباره دليلاً على وجود اللّه تعالى ، وهو نفسه دليل على وحدانيته ، فإن الإنسان حين تجرد من العوامل الطارئة ، ورجع إلى خالص فطرته ، لم يتجه بدعائه ساعة الشدة والأزمة إلى الصنم أو الوثن ، بل اتجه إلى اللّه وحده ربه ورب كل شئ كما قال تعالى في وصف نفسية هؤلاء المشركين : ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ .

* * *

● دلالة العقل :

دل العقل كذلك على أن وراء هذا الكون مكوناً واحداً فهذا الكون العريض الفسيح – على تنوع ما فيه من مخلوقات ، صغيرة وكبيرة ، حية وجامدة ، ناطقة وصامتة ، عاقلة وغير عاقلة ، علوية وسفلية – تحكمه قوانين واحدة ، تنطبق على الذرة ، كما تنطبق على المجرة ، حتى إن العالم الطبيعي حين

---

(١) يونس : ٢٢

ينظر إلى الذّرة يجدها في تكوينها مشابهة للمجموعة الشمسية في تكوينها ولا فرق .

هناك قانون عام كقانون « الزوجية » - أعني الازدواج أو الثنائية في المخلوقات كلها - عرفه الناس قديماً في الإنسان والحيوان في صورة الذكورة والأنوثة ، ولاحظوه في بعض النباتات كالنخل . ثم اكتشف العلم أن النباتات كلها فيها تذكير وتأنيث . بل الجمادات فيها هذا الازدواج في صورة الموجب والسالب في الكهرباء ونحوها . بل الذرة التي هي لبنة البناء الكوني كله تتكون من شحنة موجبة وأخرى سالبة إلى جوار النواة . وكان هذا الاكتشاف العلمي الحديث تصديقاً لما جاء به القرآن منذ أربعة عشر قرناً حين قرر هذه الحقيقة بمثل قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، وقوله سبحانه : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) وهذه الكلية ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ حقيقة لا مجازية ولا أغلبية .

ومن الدلائل على وحدة هذا الكون : ما نشاهده بين أجزائه من

---

(١) يس : ٣٦ (٢) الذاريات : ٤٩

تعاون وتناسق وتناغم ، بحيث يؤدي كل جزء منها مهمته بانتظام دون أن يصطدم بالأجزاء الأخرى أو يعوق سيرها ، أو يجور عليها . بل بالعكس يمدها بما تحتاج إليه مما عنده ، ويأخذ منها ما يفتقد هو إليه مما عندها ، كما رأينا من المبادلة القائمة بين المملكة الحيوانية والمملكة النباتية . فهل عقدت اتفاقية بينهما لتحقيق هذه المقايضة الضرورية لحياة كل منهما ؟ أم أن هناك مدبراً أعلى نظم العلاقة بين المملكتين على هذا النحو العجيب ؟

ومن الذي نظّم العلاقة بين الشمس والأرض ، وبين الأرض والقمر ، وبين القمر والشمس ، وبين كواكب المجموعة الشمسية بعضها ببعض ، وبين المجموعة الشمسية وملايين المجموعات النجمية الأخرى في مجرتنا الكبرى ، وبين مجرتنا وملايين المجرات الأخرى ، بحيث تتعاون ولا تتصادم ؟ ويجري كل شيء بحساب وميزان ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [1] ،﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [2] .

---

(١) الرحمن : ٥ – ٧

(٢) يس : ٤٠

إن هذه الوحدة المشهودة بعين البصر وعين البصيرة في الخلق كله ، لدليل ناصع على وحدة خالقه ، كما أنه - بالضرورة - دليل على وجوده .

ولو كان وراء هذا الكون أكثر من خالق لاضطرب نظامه ، واختل ميزانه ، ورأينا أثر كل خالق في الجزء الذي خلقه وهيمن عليه . وبذلك تختلف النواميس الكونية ، وتتناقض سنن الخلق، نتيجة لاختلاف إرادات الخالقين ، وهذا يؤدي بالتالي إلى فساد الكون كله لا محالة .

وإلى هذا الدليل الكوني يشير القرآن الكريم حيث يقول عن السموات والأرض : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١) .

وفي سورة أخرى يقول القرآن :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (٢) .

ثم إن القـول بوحدة الرب الأعلى - فضلا عن دلالة الوحدة

---

(١) الأنبياء : ٢٢ (٢) المؤمنون : ٩١

الكونية عليه - هو الذي يتفق مع منطق العقل البشري السوي.
فالعقل ينشد الوصول إلى الوحدة من وراء الكثرة . ويتطلب أن يسير من الأسباب المتعددة إلى سبب واحد ، هو سبب الأسباب أو علة العلل . وهذا ما جعل بعض الفلاسفة يطلقون على خالق الكون « العلة الأولى » .

* * *

• دلالة النقل :

ومع دلالة الفطـــرة والعقل ، جاءت الدلائل الســمعية ، بما تناقلته الأجيال عن كتب الله تعالى ورسله إلى الأمم في مختلف الأمصار والأعصار من الدعوة إلى الإيمان بإله واحد لا شريك له، وإفراده تعالى بالعبادة . وإنكارهم على أقوامهم الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً .

وهذا القرآن الوثيقة الإلهية المحفوظة التي تتمثل فيها هداية السماء للأرض،يقص علينا من نبأ المرسلين الذين بُعثوا جميعاً بعقيدة التوحيد ، وهذا ما احتج به القرآن على المشركين الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى بأنهم ليس معهم دليل من العقل ولا من النقل .

لنستمع معاً إلى هذا المقطع من سورة الأنبياء حيث يتحدث القرآن عن المشركين بصيغة التوبيخ والإنكار : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (١) .. ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحَقَّ ، فَهُم مُعْرِضُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) .

وفي سورة الأحقاف يطالبهم القرآن بدليل نقلي على ما يدعون : ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنَ عِلْمٍ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣) .

* * *

• التوحيد جوهر الإيمان بالله :

وإذا عرفت يا أخي أن الإيمان بالله هو جوهر العقائد الإسلامية جميعاً فواجبك أن تعرف هنا كذلك أن توحيد الله هو

---

(١) الأنبياء : ٢١ - ٢٢

(٢) الأنبياء : ٢٤ - ٢٥

(٣) الأحقاف : ٤

جوهر الإيمان بالله تعالى . وإذا تجرد عن التوحيد الحق ، كان كفراً وشركاً ، ورجساً وزوراً ، وظلماً عظيماً ، وضلالاً مبيناً .

ولهذا كان لزاماً عليك أيها المسلم أن تعرف حقيقة التوحيد ، الذي أمر الله به ، وأقام عليه دينه ، وأنزل به كتابه ، وبعث به رسوله ، وعلق خيري الدنيا والآخرة على تحقيقه وتجريده ، وجعل الجنة لأهله وأنصاره ، والنار لخصومه وأعدائه - فإن كثيراً من الطوائف نسبوا أنفسهم إلى التوحيد ، وادعوا أن ما هم عليه هو التوحيد الخالص ، وما عليه غيرهم هو الباطل .

وكل يدعى وصلاً لليلى ... وليلى لا تقر لذا وذاكا !

فأنصار فلسفة أرسطو ومن تبعه ممن سموا « فلاسفة المسلمين » تجد التوحيد عندهم يتمثل في : إثبات وجود مجرد عن الماهية والصفة ، بل هو وجود مطلق لا يعرض لشيء من الماهيات ، ولايقوم به وصف ، ولا يتخصص بنعت ، بل صفاته كلها سلوب وإضافات .. حتى انتهى توحيد هؤلاء إلى إنكار ذات الرب الذي دعت إليه أديان السماء ، وانكار خلقه للعالم ، وتدبيره له ، وعلمه بكل ما يجري فيه .. فهم يقولون بقدم الأفلاك ، وأن الله لا يبعث من في القبور ، وأن النبوة مكتسبة ،

وأنها حرفة من الحرف .. وأن الله لا يعلم شيئاً من الموجودات المعينة ألبتة ، وأنه لايقدر على قلب شيء من أعيان العالم ، ولا شق الأفلاك ولا خرقها .. وأنه لا حلال ولا حرام ، ولاأمر ولا نهي ، ولا جنة ولانار .. فهذا هو توحيد هؤلاء !!

وهل أتاك نبأ دعاة « وحدة الوجود » ؟ إنهم يزعمون أنهم وحدهم الموحدون ، ومن عداهم فهم المعددون . فهل علمت ما توحيدهم المزعوم ؟ توحيدهم : أن الحق المنزه هو عين الخلق المشبه . وأنه سبحانه هو عين وجود كل موجود وحقيقته وماهيته .. وأنه آية كل شيء ، وله فيه آية تدل على أنه عينه . وهذا عند محققيهم من خطأ التعبير . بل هو نفس الآية ، ونفس الدليل ، ونفس المستَدل ، ونفس المستدل عليه . فالتعدد بوجود اعتبارات وهمية لا بالحقيقة والوجود . فهو - عندهم - عين الناكح ، وعين المنكوح ، وعين الذابح ، وعين المذبوح ، وعين الآكل ، وعين المأكول . وهذا عندهم هو السر الذي رمزت إليه هوامس الدهور الأولية ، ورامت إفادته الهداية النبوية ، كما قال محققهم وعارفهم ابن سبعين !

ومن فروع هذا التوحيد وثماره : أن فرعون ونمروذ وأمثالهما

مؤمنون كاملو الإيمان ، عارفون بالله على الحقيقة . وأن عُبَّاد الأصنام إنما عبدوا عين الله لا غيره . فهم على الحق والصواب.. وأن لا فرق في التحليل والتحريم بين الأم والأخت وبين الأجنبية، ولا بين الماء والخمر ، ولا بين الزواج والزنا . الكل من عين واحدة ، بل هو العين الواحدة .. وأن الأنبياء ضيَّقوا الطريق على الناس ، وبعَّدوا عليهم المقصود ، والأمر وراء ما جاءوا به ودعوا إليه !!

وإن ننس لا ننس هنا توحيد « المعتزلة » الذين سموا أنفسهم أهل التوحيد والعدل . وجعلوا التوحيد أول أصولهم الخمسة .

تُرى مامضمون هذا التوحيد ؟

إنه إنكار قَدر الله تعالى ، وجحد عموم مشيئته للكائنات وقدرته عليها .. ومتأخروهم ضموا إلى ذلك توحيد « الجهمية » فأصبحت حقيقة التوحيد عندهم : إنكار القَدر ، وإنكار حقائق الأسماء الحُسنى ، والصفات العُلا .

وفي مقابل هذا التوحيد الأعرج يجيئ توحيد « الجبرية » ومضمونه عندهم : تفرد الرب بالخلق والفعل ، وأن العباد غير

فاعلين على الحقيقة ، ولا محدثين لأفعالهم ، ولا قادرين عليها ، وأن أفعالهم الاختيارية لا تعدو أن تكون مثل حركات الأشجار عند هبوب الرياح ، وأن الرب تعالى لم يفعل لحكمة ولا غاية تُطلب بالفعل ، وليس في المخلوقات قوى وطبائع وغرائز وأسباب ، بل ما تم إلا مشيئة محضة ، ترجح مثلاً على مثل ، بغير مرجح ولا حكمة ولا سبب ألبتة (١) .

وهل يجهل ذو بصيرة توحيد المضللين من عوام المسلمين ، وتوحيد مضلليهم ممن يدعون المشيخة ، ويتزيون بزي الدين ورجاله الصالحين ؟

إنهم يدعون غير الله ويرجون ويخافون غير الله ، وممن ادعوا لهم أنهم أولياء أو أقطاب أو أوساط أو أبدال أو غير ذلك من الألقاب .

فهم يطوفون بأضرحتهم يسألونهم أكثر مما يسألون الله ، ويستعينونهم أكثر مما يستعينون الله . يهرعون إليهم في الملمات، يطلبون منهم قضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، بدعوى أنهم وسطاء بينهم وبين الله ، ولولا الواسطة لذهب -كما قيل - الموسوط !

---

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم جـ ٣ ص ٤٤٧ - ٤٤٩ ط . السنة المحمدية .

وقبل هذا كله لايغيب عنك « توحيد النصارى » ، فقد زعموا أن ديانتهم ديانة توحيدية ، وأنهم لم يخرجوا من دائرة التوحيد، برغم اعتقادهم وقولهم : إن الله ثالث ثلاثة .. وهي : الأب والابن والروح القدس ، فهم عائلة أو شركة مقدسة : الإله الأب، والإله الابن ، والأقنوم الثالث المسمى « روح القدس ».

فإذا قلت لهم : كيف تكونون موحدين مع قولكم بهؤلاء الثلاثة ؟ قالوا : الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة !! ولا مجال للعقل والمنطق في أمر العقيدة ، فشعارهم هنا : اعتقد وأنت أعمى !!

من أجل ذلك كان من أوجب الواجبات بيان حقيقة التوحيد الذي دعا إليه الإسلام ، وبنى عليه تعاليمه كلها ، حتى يتبين الحق من الباطل .

* * *

• التوحيد المأمور به :

إنه توحيد اعتقادي علمي ، وتوحيد عملي سلوكي .

وبعبارة أخرى . . هما توحيدان لا يغني أحدهما عن الآخر :

توحيد في المعرفة والاثبات والاعتقاد .. وتوحيد في الطلب والقصد والإرادة .

فلا يُقبل إيمان امرىء عند الله ما لم يقم بتوحيده سبحانه : علماً واعتقاداً ، بأن يؤمن بأنه تعالى واحد متفرد في ذاته وصفاته وأفعاله ، لا شريك له ولا شبيه له ، ولا ولد ولا والد له .

وتوحيده كذلك : قصداً وعملاً ، بأن يفرده عز وجل بالعبودية الكاملة ، والطاعة المطلقة ، والذل له والإنابة اليه والتوكل عليه والخشية منه والرجاء فيه .. الخ .

والتوحيد بالمعنى الأول هو الذي أفصحت عنه ودلت عليه بوضوح سورة « الاخلاص » بتمامها ، وأول سورة « آل عمران » ، وأول سورة « طه » ، وأول سورة « ألم . السجدة » ، وأول سورة « الحديد » ، وآخر سورة « الحشر » .. وغيرها .

والتوحيد بالمعنى الثاني ، هو ما تضمنته ، ودعت اليه ، ودلت عليه ، سورة : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾ ، وجملة سورة « الأنعام » ، وأول سورة « الأعراف » وآخرها ، وأول سورة « يونس » ووسطها وآخرها ، وأول سورة « الزمر » وأواخرها .. وغالب سور القرآن . بل قال العلامة ابن القيم : إن كل سورة في القرآن متضمنة لنوعي التوحيد .

وقد جرى كثير من المصنفين قديماً وحديثاً ، على تسمية النوع الأول من التوحيد « توحيد الربوبية » ، وعلى تسمية النوع الثاني « توحيد الإلهية » أو « الألوهية » .

وأحسبك أيها القارىء الكريم في حاجة إلى إلقاء مزيد من الضوء على معنى كل من هذين المصطلحين ، حتى تكون على بينة من ربك ، وبصيرة من دينك . « وليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حي عن بينة . فما معنى توحيد الربوبية ؟ وما معنى توحيد الألوهية ؟

* * *

أولا : توحيد الربوبية

ومعناه اعتقاد أنه تعالى رب السموات والأرض وخالق مَنْ فيهما وما فيهما ، ومالك الأمر في هذا العالم كله لا شريك له في ملكه ، ولا مُعَقِّب عليه في حكمه ، فهو وحده رب كل شيء ، ورازق كل حي ، ومُدَبِّر كل أمر ، وهو وحده الخافض الرافع ، المعطي المانع ، الضار النافع ، المعز المذل ، وكل مَنْ سواه وما سواه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً ، إلا بإذن الله ومشيئته . وهذا القسم من التوحيد لم يجحده إلا الماديون

الملحدون الذين ينكرون وجود الله تعالى ، كالدهريين قديماً ، والشيوعيين في عصرنا . ومثل الماديين « الثنوية » الذين يعتقدون أن للعالم الهين . إلهاً للنور وإلهاً للظلمة ، أما معظم المشركين كالعرب في الجاهلية فكانوا يعترفون بهذا النوع من التوحيد ولا ينكرونه ، كما حكى عنهم القرآن :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوات والأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَن نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا ، لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (٢) ،﴿ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للَّهِ ، قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوات السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيم * سَيَقُولُونَ للَّهِ ، قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للَّهِ ، قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ (٣) .

فهذه أجوبة المشركين ، تدل على انهم يقرون بربوبية الله

---

(١) العنكبوت : ٦١ (٢) العنكبوت : ٦٣

(٣) المؤمنون : ٨٤ - ٨٩

تعالى للكون وتدبيره لأمره ، وكان مقتضى إيمانهم بربوبيته تعالى للكون أن يعبدوه وحده ولا يشركوا بعبادة ربهم أحداً، ولكنهم أنكروا القسم الآخر من التوحيد هذا ، وهو توحيد الإلهية أو الألوهية .

* * *

ثانياً : توحيد الألوهية

ومعنى توحيد الألوهية ، إفراد الله تعالى بالعبادة والخضوع والطاعة المطلقة ، فلا يُعبد إلا الله وحده ، ولا يُشرك به شيء في الأرض أو في السماء . ولا يتحقق التوحيد ما لم ينضم توحيد الإلهية إلى توحيد الربوبية . فإن هذا وحده لا يكفي ، فالعرب المشركون كانوا يقرون به ، ومع هذا لم يدخلهم في الإسلام لأنهم أشركوا بالله ما لم يُنَزِّل به سلطاناً ، واتخذوا مع الله آلهة أُخرى ، زعموا أنها تقربهم الى الله زلفي ، أو تشفع لهم عند الله .

والنصارى لم ينكروا أن الله رب السموات والأرض ، ولكنهم أشركوا به المسيح عيسى ، واتخذوه إلهاً من دون الله ، وأعتبر القرآن هؤلاء وأولئك كفاراً تحرم عليهم الجنة ، ويخلدون في النار.

ومنذ أقدم العصور ضل الناس عن هذا التوحيد ، فعبدوا من دون الله آلهة شتى . عبد قوم نوح : وُدّاً وسواع ويغوث ويعوق ونسرا .. وعبد قوم إبراهيم : الأصنام .. وعبد قدماء المصريين: العجل .. وعبد الهندوس : البقر .. وعبد أهل سبأ : الشمس.. وعبد الصابئون : الكواكب .. وعبد المجوس : النار .. وعبد العرب : الأوثان والحجارة .. وعبد النصارى : المسيح وأُمه .. وعبدوا الأحبار والرهبان من دون الله ، فهؤلاء كلهم مشركون ، لأنهم لم يفردوا اللهَ تعالى بالعبادة ، التي لا تُستحق لأحد غيره .

ولكن ما معنى « العبادة » التي هى من حق الله وحده ؟

• معنى العبادة :

العبادة كلمة تتضمن معنيين امتزج أحدهما بالآخر ، فصارا شيئاً واحداً . وهما نهاية الخضوع مع نهاية الحب . فالخضوع الكامل الممتزج بالحب الكامل هو معنى العبادة . فأما حب بلا خضوع ، أو خضوع بلا حب ، فلا يحقق معنى العبادة .. وكذلك بعض الخضوع مع بعض الحب لا يحقق العبادة ، بل لا بد من كل الخضوع مع كل الحب .

* * *

• صور العبادة وأنوعها :

والعبادة ليست مقصورة على صورة واحدة ، كما يخيل لكثير من الناس ، بل لها أنواع وصور عديدة . .

(أ) فمنها : الدعاء - أى الاتجاه إلى الله تعالى بطلب نفع أو دفع ضر ، أو رفع بلاء أو نصر على عدو ، أو نحو ذلك . فهذا الاتجاه بالسؤال المنبعث من القلب لله تعالى هو مخ العبادة وروحها كما في الحديث : « الدعاء هو العبادة ».(رواه الترمذي).

(ب) ومنها : إقامة الشعائر الدينية ، مثل : الصلاة والصيام والصدقة والحج والنذر والذبح وما شابه ذلك . فلا يجوز أن توجه هذه الشعائر إلا لله (لا يجوز الصلاة لغير الله ولا الصيام والصدقة والنذر والذبح وغيرها من الشعائر) .

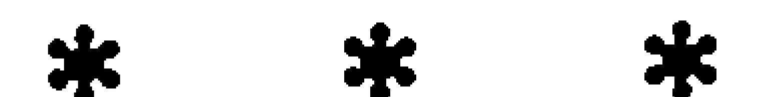
(جـ) ومنها : الانقياد والإذعان الديني لما شرع الله من أحكام ، أحل بها الحلال وحرّم الحرام ، وحد الحدود ، ونظم شئون الحياة ، فلا يجوز لمن آمن بالله رباً أن يأخذ عن البشر النظم والأحكام والقيم والقوانين ، يخضع لها ويَحكِّمها في حياته بغير سلطان من الله فهذا ضرب من العبادة .

* * *

• أهمية توحيد الألوهية :

وهذا القسم من التوحيد هو أعظم أقسامه وأهمها ، وهو الذي وَجَّهَ الرسل الكرام أكبر عنايتهم إليه ، كما سيأتي .. وهو الذي يتبادر إلى الذهن عند إطلاق كلمة « التوحيد » .

وهو الذي بعث اللّه به رسله ، وأنزل كتبه . وأرى الناس آياته في الآفاق وفي أنفسهم ، ومن أجله حُقت الحاقة ، ووقعت الواقعة، ونُشرت الدواوين ، ونُصبت الموازين ، وقامت سوق الجنة والنار، وانقسم الناس إلى شقي وسعيد . فريق في الجنة وفريق في السعير .



لا إله إلا الله عنوان التوحيد

وللتوحيد الذي جاء به الرسل عنوان يعبر عن حقيقته في كلمة موجزة ، هذا العنوان هو كلمة « لا إله إلا الله » التي تسمى « كلمة التوحيد » أو « كلمة الإخلاص » أو « كلمة التقوى » .

وهذه الكلمة العظيمة تتضمن نفي الإلهية عن كل ما سوى الله ، وإثباتها لله وحده ، فهو وحده الإله الحق ، وما عداه مما عبد الناس في مختلف العصور فآلهة زائفة باطلة صنعتها الجهالة والأوهام . كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ وأَنَّ اللَّهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ ﴾ (١) .

والإله هو : المعبود بحق - أى المحبوب المطاع ، الذي يستحق أن يُعبد - وذلك لما اتصف به من صفات الكمال ، التي تقتضي أن يُخص بنهاية الحب ونهاية الخضوع ، وهما معنى العبادة ، فان الاله - كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية : هو الذي تألهه القلوب بحبها . وتخضع له ، وتذل له ، وتخافه وترجوه ،

---

(١) الحج : ٦٢

وُتنيب إليه في شدائدها ، وتدعوه في مهماتها ، وتتوكل عليه في مصالحها ، وتلجأ اليه وتطمئن بذكره ، وتسكن إلى حبه .. وليس ذلك إلا اللّه وحده .

ولهذا كانت « لا إله إلاّ اللّه » أصدق الكلام وأفضله ، وكانت رأس الأمر ، وأحسن الحسنات ، جاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي : لا إله إلاّ اللّه » ..

* * *

• التوحيد هو المهمة الأولى للرسل :

ولأهمية التوحيد ومنزلته في الديانات السماوية جميعاً ، كان هو العنصر الأول في دعوات الرسل جميعاً من لدن نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام .

ان المهمة الأولى للرسل الذين بعثهم اللّه هداة لعباده تتمثل في أمرين أساسيين كلاهما لازم للآخر ومكمل له ..

الأول : الدعوة إلى عبادة اللّه وحده .

الثاني : الدعوة إلى اجتناب الطاغوت .

وفي هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (١) .

ويقول مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) .

ولهذا نجد أول نداء يوجهه كل رسول إلى قومه : ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٣) . . هكذا ذكر القرآن عن نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم .

هكذا نجد نوحاً أول رسل الله إلى المشركين يقول لقومه : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ﴾ (٤) .

والمسيح عيسى ابن مريم الذي اتخذه قومه بعد ذلك ربا يعبد، يقول : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (٥) .

---

(١) النحل : ٣٦ (٢) الأنبياء : ٢٥ (٣) الأعراف : ٥٩
(٤) هود : ٢٥ - ٢٦ (٥) المائدة : ٧٢

أما خاتم النبيين محمد ﷺ فقد كانت دعوته إلى التوحيد واجتناب الطاغوت أبرز وأقوى وأعمق وأخلد ، كما يبدو ذلك واضحاً في القرآن والسنة ، وكما يتجلى في شعائر الإسلام وشرائعه وآدابه وأخلاقه .

* * *

• التوحيد شعار الإسلام :

وكان من مظاهر عناية الإسلام الكبرى بالتوحيد أن جعله شعاراً له يميزه عن كل الديانات سواء منها الوثنية والكتابية المحرفة ، وأصبح أشهر ما يُعرف به الإسلام أنه « دين التوحيد » ، وصار عنوان الاسلام يتجسد في كلمتين أو جملتين من شهد بهما فقد دخل باب الإسلام . أولى هاتين الكلمتين « شهادة أن لا إله إلا الله » ، والثانية أن يشهد « أن محمداً رسول الله ».

وأصبح إعلان هذا التوحيد شـــعيرة يومية ، بل أكثر من يومية ، حيث يكررها الفرد المسلم في صلواته المفروضة فقط تسع مرات في تشهده ، وخمس مرات في إقامته ، ولم يكتف الإسلام بذلك، بل شرع الأذان في كل يوم خمس مرات ليعلن على الدنيا كلها من فوق منائره بصوت جهير : « أشهد أن لا إله إلا الله » .

ومن روائع الإسلام أنه سن للأب المسلم أن يستقبل مولوده بالأذان الشرعي ، يؤذن به في أذنه اليمنى ، لتكون كلمة التوحيد أول ما يطرق سمعه من أصوات الناس .

فإذا عاش في الدنيا ما قُدِّرَ له ، ثم حضرته الوفاة ، كان على أوليائه وأقاربه أن يلقنوه كلمة التوحيد : « لا إله إلا الله » .

وبهذا يكون أول ما يستقبل به المسلم نور الحياة هو كلمة التوحيد ، وآخر ما يودع به الحياة هو كلمة التوحيد ، وما بين مهد الطفولة وفراش الموت ليس له مهمة غير إقامة التوحيد والدعوة إلى التوحيد .

* * *

• التوحيد حق الله على العباد :

ومما يؤكد هذا المعنى أن الرسول ﷺ بيّن أن التوحيد هو حق الله على عباده الذي لا يجوز التفريط فيه ، ولا الغفلة عنه ..

روى الشيخان البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : « كنت رديف النبي ﷺ على حمار ، فقال لي : « يا معاذ ، أتدري ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا

يشرك به شيئاً »، قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس ؟ . قال : « لا تبشرهم فيتكلوا » .

والسر في هذا الحق أن الله تعالى خلق الإنسان من عدم ، وأمده بنعم لا تُحصى ، وسخر الشمس والقمر والليل والنهار لخدمته ، وآتاه العقل ، وعلّمه البيان ، فمن حق هذا الخالق الرازق ، المنعم المعلم ، الرحمن الرحيم ، أن يُشكر فلا يُكفر ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويُطاع فلا يُعصى .

ولهذا كان بيان هذا الحق وتأكيده هو أول وصايا القرآن كما في الآية التي تسمى آية الحقوق العشرة ، المبدوءة بقوله تعالى : ﴿ واعبُدُوا اللَّهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيئاً ، وَبِالوَالِدَيْنِ إحْسَاناً﴾[1] ...الآية . وكما قال في الآيات المحكمة المشتملة على الوصايا العشر في سورة الأنعام : ﴿ قُلْ تَعَالَوا أتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيكُمْ ، ألاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَبِالوَالِدَيْنِ إحْسَاناً﴾[2] .. الخ ، ومثل ذلك وصايا الحكمة في سورة الاســـراء المبدوءة بقوله تعالى : ﴿ لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماًمَخْذُولاً﴾

(١) النساء : ٣٦ (٢) الأنعام : ١٥١

وَقَضَى ربُّكَ ألاَّ تَعبُدُوا إلاَّ إياهُ وَبِالوَالِدين إحْسَـــاناً ﴾ (١)

... الآيات .

* * *

• التوحيد رسالة المسلم في الحياة :

وإذا كان المسلم يستقبل حياته بالتوحيد ويودعها بالتوحيد ، فإن وظيفته بين مهد الطفولة وفراش الموت ، هى إقامة التوحيد، والدعوة إلى التوحيد .

ويقول الله تعالى في بيان الوظيفة التي خلق لها المكلفين من الانس والجن : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِن رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أنْ يُطْعِمُونِ ﴾ (٢) .

بينت الآية الكريمة أنه سبحانه خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له، فهذه هى الغاية والحكمة من خلقهم . لم يخلقهم الله تعالى ليأكلوا ويتمتعوا ، كما تأكل الأنعام ، دون أن يعرفوا الله جل شأنه ، ويقدروه حق قدره ، ويخصوه بالعبادة ضارعين خاشعين .

---

(١) الاسراء : ٢٢ - ٢٣ (٢) الذاريات : ٥٦ - ٥٧

فمن عاش عمره من غير أن يحقق هدف وجوده ووظيفة حياته، وهي عبادة الله وحده - فقد انحط عن مرتبة المكلفين العقلاء ، وأصبح كالأنعام أو أضل سبيلا .

* * *

• التوحيد رسالة الأمة الإسلامية إلى الأمم :

والتوحيد كما هو رسالة المسلم في الحياة ، هو أيضاً رسالة الأمة المسلمة إلى العالم كله ، وإلى الأمم جميعاً . ولهذا كان النبي ﷺ يختم دعوته إلى كسرى وقيصر وغيرهما من ملوك الأرض وأمرائها ، بهذه الآية الكريمة : ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوا إلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَينَكُمْ ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِن دُونِ اللَّهِ ، فَإِن تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم ومن تبعهم بإحسان يعرفون هذه الرسالة وواجبهم نحوها ، وحين سأل رستم قائد

---

(١) آل عمران : ٦٤

الفرس ربعي بن عامر في حرب القادسية : من أنتم ؟ وما مهمتكم ؟ أجابه بقوله : « نحن قوم بعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام » .

* * *

بماذا يتحقق التوحيد ؟

إن التوحيد الذي جاءت به الرسل ، وعنى الإسلام بتثبيته وتأكيده وحمايته لا يتحقق وترسخ جذوره وتمتد فروعه،إلا إذا توافرت له العناصر الآتية :

العنصر الأول : إخلاص العبودية لله وحده .

العنصر الثاني : الكفر بكل الطواغيت والبراءة ممن عبدها أو والاها من دون الله .

العنصر الثالث : إتقاء الشرك بكل ألوانه ومراتبه ، وسد المنافذ إليه .

أولا - إخلاص العبودية لله :

أما إخلاص العبودية لله تعالى فمعناه : إعطاء الألوهية حقها

الكامل من التعظيم والمحبة والخضوع المطلق ، وذلك يثبت بأمور ثلاثة :

١ - ألا يبغي الانسان غير الله رباً يعظمه كما يعظم الله.

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (١)

فكل ما اتخذه الناس من أرباب عبدوها أو عظموها من دون الله أو مع الله يجب أن يسقط ويزول سواء أكانت أرباباً من الحجر أم من البشر ، ولهذا كانت دعوة رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء : ﴿ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ (٢) .

٢ - ألا يتخذ غير الله ولياً يحبه كحب الله ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ؛ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ ﴾ (٤) .

إلى أن قال تعالى في شأنهم : ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (٥) .

---

(١) الأنعام : ١٦٤
(٢) آل عمران : ٦٤
(٣) الأنعام : ١٤
(٤) البقرة : ١٦٥
(٥) البقرة : ١٦٧

والمعنى : أنهم يحبون أندادهم وأولياءهم حباً ممتزجاً بالخضوع والخوف والتعظيم الذي لا يجوز أن يكون إلا لله .

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب : ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله ، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً ولم يدخلهم في الاسلام ، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله ؟ وكيف بمن أحب الند وحده ولم يحب الله ؟؟

إن مقتضى التوحيد أن يخلص المرء حبه لله ، ولا يتخذ ولياً ولا نداً يحبه كحب الله ، فالولاية لا تكون الا لله : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [1] .

٣ - ألا يبتغي غير الله حكماً ، يطيعه كما يطيع الله ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ ؛ [2] .

وذلك أن الذي له حق الحكم في شئون عباده والتشريع لهم في

---

(١) الشورى : ٩ (٢) الأنعام : ١١٤

أمور دينهم ودنياهم إنما هو الله وحده ، العليم بخلقه ، الرحيم بهم ، الخبير بما يصلحهم وما يفسدهم . ﴿ ألاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ (١) .

ومن هنا قرر القرآن الكريم أن الحكم - بمعنى التشريع - ليس إلا لله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ إنِ الحُكْمُ إلاَّ للهِ ، أَمَرَ ألاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعلَمُونَ ﴾(٢) .

كما اعتبر القرآن التحاكم الى غير الله ورسوله خروجاً عن حقيقة الايمان ، ودخولاً في طاعة الشيطان : ﴿ ألَمْ تَرَ إلَى الذيِّنَ يَزْعُمُونَ أنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أنْ يَتَحاكَمُوا إلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أنْ يكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً * وَإذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إلَى مَا أنْزَلَ اللهُ وَإلي الرَّسُولِ رَأَيْتَ المُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً ﴾(٣).

* * *

(١) الملك : ١٤
(٢) يوسف : ٤٠
(٣) النساء : ٦٠ - ٦١

ثانياً - الكفر بالطواغيت :

كان العنصر الأول في تحقيـق التوحيد هو إخـلاص العبودية لله 6 وإعطاء الألوهية حقها من التعظيم والمحبة والطاعة ، التي لا ينبغي أن تكون إلا لله سبحانه .

أما العنصر الثاني ، فهو الكفر بالطواغيت والبراءة من كل من عبدها أو والاها من دون الله ، حتى إن القرآن الكريم قدّم أحياناً الكفر بالطـاغوت علـى الإيمان بالله ولـهـذا قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا ﴾ (١) .

وقال رسول الله ﷺ : « من قال لا إله إلا الله ، وكفر بما يُعبد من دون الله ، حرُم ماله ودمه ، وحسابه على الله »(رواه مسلم)

فلم يجعل الإقرار بكلمة التوحيد ، عاصماً للدم والمال ، حتى يضم إليها الكفر بما يُعبد من دون الله .

ذلك أن الأشياء تتميز بأضدادها ، فالإيمان بالحق لا يتميز ويتحقق إلا بالكفر بالباطل ، والبراءة من أهله .

ولهذا أعلن إمام الموحدين - إبراهيم عليه السلام - براءته من

(١) البقرة : ٢٥٦

آلهة قومه وأصنامهم وعداوته لهم كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ (١) . وقال سبحانه : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ (٢) .

وبهذا نعلم أن التوحيد الحق لا يتم إلا إذا انضم إلى الإيمان بالله وعبادته ، الكفر بالطاغوت والبراءة من أوليائه ، ومن أجل ذلك كان نداء الرسل جميعاً إلى قومهم ما عرفنا من قبل : ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (٣) .

ولكن ما معنى الطاغوت ؟

الطاغوت كلمة مشتقة من « الطغيان » وهو مجاوزة الحد . وقد اختلفت عبارات السلف في تحديد معناه . فقال عمر رضى الله عنه : الطاغوت : الشيطان . وقال جابر رضى الله عنه : الطواغيت : كهان كانت تنزل عليهم الشياطين . وقال مالك : الطاغوت : كل ما عُبِدَ من دون الله .

---

(١) الزخرف : ٢٦ - ٢٧ (٢) الممتحنة : ٤
(٣) النحل : ٣٦

وهذه الأقوال تُذكر أمثلة للطاغوت ولكنها لا تحصر كل أفراده . وأضبط تحديد لمعنى الطاغوت ما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله قال : « الطاغوت » كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع ، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون اليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله . فهذه طواغيت العالم ، إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الطاغوت ، وعن طاعة رسول الله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته .

* * *

ثالثاً - إتقاء الشرك والحذر منه :

وهذا هو العنصر الثالث لتحقيق التوحيد ، وهو يقتضي معرفة أنواع الشرك كله أكبره وأصغره ، جليه وخفيه ، والتحرر من كل شائبة للشرك ، والحذر من منافذه ومداخله .

إن الشيء - كما قلنا - لا يتميز الا بضده ، فلهذا لا يُعرف التوحيد خالصاً متميزاً إلا بمعرفة ضده وهو الشرك .

فما هى حقيقة الشرك ؟

* * *

الشرك

الشرك .. أن يجعل المرء لله شريكاً فيما هو من خالص حقه سبحانه ، كأن يتخذ مع الله إلهاً أو آلهة ، يعبدها أو يطيعها أو يستعين بها أو يحبها أو نحو ذلك مما لا يستحقه إلا الله جل شأنه .

وهذا هو الشرك الأكبر ، الذي لا يُقبل معه عمل صالح ، بل لا يصلح معه عمل ، لأن أول شرط لقبول العمل وصلاحه أن يكون خالصاً لله كما قال تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ (١) .

وهذا الذنب الذي لا يقبل المغفرة بحال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْـــرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾(٢) .

والجنة حرام على المشرك ، كما أن النار مأواه ومثواه قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (٣) .

* * *

---

(١) الكهف : ١١٠ .
(٢) النساء : ٤٨
(٣) المائدة : ٧٢

أنواع الشرك

الشرك نوعان : شرك أكبر ، وشرك أصغر .

فالشرك الأكبر هو الذي لا يغفره الله ولا يدخل صاحبه الجنة أبداً .

والشرك الأصغر من كبائر الذنوب التي يُخشى على من اقترفها وأصر عليها أن يموت كافرا ، إن لم يتداركه الله برحمته فيتوب قبل موته .

• الشرك الأكبر جلى وخفى :

والشرك الأكبر أيضاً نوعان .. ظاهر جلى ، وباطن خفى .

فمن الشرك الأكبر الظاهر : عبادة إله أو آلهة مع الله سواء أكان هذا الاله كوكباً كالشمس والقمر ، أو كان جماداً كالأصنام والحجارة ، أو كان حيواناً كالعجل والبقر ، أو انساناً كالذين عبدوا فرعون وأمثاله من الملوك الذين ادعوا الألوهية أو ادعيت لهم ، ووجدوا في الناس من يصدقهم .

وكذلك الذين عبدوا « بوذا » أو المسيح عيسى ابن مريم ، أو كان من المخلوقات المغيبة عنا مثل الجن والشياطين والملائكة .. وقد وُجِدَ له عُبَّاد في أمم شتى .

* * *

• من الشــــــرك الأكبــر الخفي : الدعاء والاستعانة بالموتى :

ومن الشرك الأكبر نوع خفي ، يخفي على كثير من الناس ومنه دعاء الموتى و المقبورين من أصحاب الأضرحة والمقامات ، والاستعانة بهم وطلب قضاء الحوائج منهم من شفاء المرضى وتفريج الكربات ، وإغاثة الملهوف ، والنصر على العدو ، مما لا يقدر عليه إلا الله ، واعتقاداتهم بأنهم يضرون وينفعون . وهذا أصل شرك العالم ، كما قال ابن القيم .

وسبب خفاء هذا الشرك أمران :

١ - أن الناس لا يسمون هذا الدعاء والاستعانة والاستغاثة بأصحاب القبور عبادة ، ويظنون أن العبادة إنما تنحصر في الركوع والسجود والصلاة والصيام ونحوها .

والحقيقة أن روح العبادة - كما ذكرنا - هو الدعاء ، كما جاء في الحديث : « الدعاء هو العبادة » .

٢ - أنهم يقولون : نحن لا نعتقد أن هؤلاء الأموات الذين ندعوهم ونستغيث بهم آلهة أو أرباب لنا ، بل نعتقد أنهم مخلوقون مثلنا ، ولكنهم وسائط بيننا وبين الله وشفعاء لنا عنده .

وهذا من جهلهم بالله جل جلاله ، فقد حسبوه مثل الملوك الجبارين والحكام المستبدين ، لا يُستطاع الوصول إليهم إلا بوسطاء وشفعاء .

وهو نفس الوهم الذي سقط فيه المشركون قديماً ، وحين قالوا عن آلهتهم وأصنامهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾[1] ، ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾[2] .

ولم يعتقدوا يوما أن آلهتهم وأصنامهم تخلق أو ترزق أو تحيي أو تميت ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ ﴾[3] .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمْ مَنْ يُمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ ؟[4] .

ومع هذا الاعتقاد في الله تعالى ، أنه خالق السموات والأرض ، وأنه الرزاق المدبر المحيي المميت .. والاعتقاد في

---

(1) الزمر : ٣ — (2) يونس : ١٨

(3) الزخرف : ٩ — (4) يونس : ٣١

الأصنام .. أنها مجرد وسائط وشفعاء لهم عند الله .. مع هذا كله رماهم القرآن بالشرك ، وسماهم المشركين ، وأمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك ويقولوا : « لاَ إلٰهَ إلاَّ اللّٰه » فمن قالها فقد عصم دمه وماله إلا بحق الإسلام .

ان الله تعالى غني عن الوسائط رالشفعاء ، وهو أقرب الى عبده من حبل الوريد ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [1] .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [2] .

وبابه تعالى مفتوح لكل من أراد الدخول ، ليس عليه حاجب ولا بواب .

* * *

• من الشرك الأكبر : اتخاذ غير الله مشرعاً :

ومن الشرك الأكبر الذي يدق ويخفي أيضاً على كثير من الناس ، اتخاذ غير الله مشرعاً أو ابتغاء غير الله حَكَماً .

وبعبارة أخرى : إعطاء بعض الناس لفرد أو جماعة حق التشريع المطلق لهم أو لغيرهم من البشر ، فيحلون لهم ويحرمون عليهم ما شاءوا ، ويشرعون لهم من الأنظمة والقوانين ، أو يضعون لهم من المناهج والأفكار ، ما لم يأذن به الله تعالى ، وما يضاد

---

(١) البقرة : ١٨٦ (٢) غافر : ٦٠

شـرع اللّه سـبحانه ، فيتبعهم الآخرون ويطيعونهم فيما شـــرعوا ووضعوا ، كأنه شرع إلهي ، أو حكم سماوي ، يُطاع ولا يُعصى .

إن الذي له الحق في التشريع لخلقه هو اللّه وحده . فهو الذي خلقهم ورزقهم وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، فمن حقه وحده أن يكلفهم ويأمرهم وينهاهم ويحل لهم ويحرم عليهم، لأنه رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، وليس لأحد غيره من الربوبية والمُلك والألُوهية ما له ، حتى يكون له سلطة الحكم والتشريع .

إن العالم هو مملكة اللّه تعالى ، والناس في هذه المملكة عبيده ورعاياه ، وهو سبحانه سيد هذه المملكة وحاكمها ، فله وحده أن يحكم ويشرع ويُحَلِّل ويُحَرِّم ، وعلى الرعية أن يسمعوا ويطيعوا .

فمن أدعى من رعية هذه المملكة أن لأحد فيها حق الأمر والنهى والتحليل والتحريم والحكم والتشريع دون إذن من سيد المملكة أو حاكمها ، فقد جعل من بعض عبيد المَلك شريكاً له في المُلك ، منازعاً له في سلطة السيادة ، وفي اختصاصه بالحكم والسلطان .

ومن أجل ذلك حكم القرآن الكريم على أهل الكتاب بالشرك، وسماهم مشركين ، لأنهم أعطوا أحبارهم ورهبانهم حق التشريع لهم ، فأطاعوهم فيما أحلوا لهم وما حرّموا عليهم ، وقرن القرآن ذلك بعبادتهم للمسيح ابن مريم ، سواء بسواء .

قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [1] .

وهذه الآية قد فسرها النبي ﷺ لعدى بن حاتم الطائي ، وكان نصرانياً في جاهليته ، وذلك أنه لما جاء مسلماً دخل على رسول الله ﷺ فقرأ عليه هذه الآية . قال عدى : فقلت : إنهم لم يعبدوهم ، فقال ﷺ : « بلى .. إنهم حرّموا عليهم الحلال ، وحللوا لهم الحرام فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » [2] .

فقد دلت هذه الآية وما فسرها من حديث رسول الله ﷺ على أن من أطاع الله في معصية أو اتبعه فيما لم يأذن به الله ، فقد اتخذه رباً ومعبوداً ، وجعله لله شريكاً ، وذلك ينافي التوحيد الذي هو دين الله ، والذي دلت عليه كلمة الإخلاص « لا إله إلا الله » فإن الإله هو المعبود ، وقد سمى الله طاعتهم لأحبارهم ورهبانهم عبادة لهم ، وسماهم أرباباً - أي شركاء لله تعالى في العبادة . وهذا هو الشرك الأكبر ، فكل من أطاع مخلوقاً واتبعه على غير ما شرعه الله ورسوله فقد اتخذه رباً ومعبوداً

---

(١) التوبة : ٣١ (٢) رواه أحمد والترمذي وحسنه .. وغيرهما .

وان لم يسمه بذلك كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [1] .

ويشبه هذه الآية في المعنى قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [2] .

وإذا كان هذا حكم القرآن والسنة فيمن اتخذ غير الله مشرعاً، واتبعه فيما لم يأذن به الله ، فكيف بمن جعل نفسه لله نداً ، فأعطاها حق الحكم والتشريع والتحليل والتحريم الذي هو من خصائص الألوهية ؟ !

* * *

• ألوان من الشرك الأصغر :

ودون الشرك الأكبر توجد ألوان وأنواع أخرى من الشرك ، تسمى « الشرك الأصغر » وهو من كبائر الذنوب ، بل أعظم عند الله من سائر الكبائر ... منها :

- الحلف بغير الله :

ومن الشرك الأصغر .. الحلف بغير الله تعالى ، كأن يقسم

---

(١) الأنعام : ١٢١ (٢) الشورى : ٢١

بالنبي أو بالكعبة الشريفة أو بولى من الأولياء ، أو كبير من الكبراء ، أو يقسم بالوطن ، أو بالآباء والأجداد أو بغير ذلك من المخلوقات ، فكل ذلك من الشرك ، ففي الحديث : « ... ومن حلف بغير الله فقد كفر - أو أشرك » ، (رواه الترمذي وحسنه) .

وذلك لأن في القَسم تعظيماً للمقسم به ، والذي ينبغي أن يُخص بالتعظيم والتقديس هو الله وحده ، لهذا جاء النهى عن الحلف بغيره ، قال ﷺ : « لا تحلفوا بآبائكم » ، وقال : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليذر » .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً » .

ومن المعلوم في الدين ، أن الحلف بالله كاذبا كبيرة من الكبائر ، لكن الشرك - وإن كان شركاً أصغر - أكبر من كل الكبائر ، في نظر فقهاء الصحابة رضى الله عنهم [١] .

---

(١) الحالف بغير الله لا وفاء عليه ولا كفارة ، لأن هذا شرك ، والشرك لا حرمة له ، وإنما عليه أن يستغفر الله تعالى وأن يقول ما قاله الرسول ﷺ : « من حلف وقال في حلفه : واللات والعزى ، فليقل : لا إله إلا الله » (رواه البخاري) .

بين هذا الحديث أن كفارة الشرك تجديد التوحيد لا الإطعام ولا الصيام .

- لبس الحلقة والخيط :

التوحيد لا ينافي اتخاذ الأسباب التي وضعها الله في الكون ، كاستعمال الطعام للشبع ، والماء للري ، والدواء للعلاج، والسلاح للدفاع ، ونحو ذلك من الأسباب التي جعلها الله مؤدية إلى مسبباتها .

فإذا مرض الإنسان وعرض نفسه على طبيب ، وقرر له استعمال دواء ، أو إجراء جراحة ، أو غير ذلك ، فقام به ونفذه ، فليس ذلك خروجاً عن التوحيد .

إنما ينافي التوحيد اللجوء إلى أسباب خفية لم يشرعها الله ، لرفع البلاء بعد وقوعه أو للوقاية منه قبل وقوعه فيما زعموا .

ومن ذلك لبس حلقة من المعدن ، أو وضع خيط يُربط بالعضد، فقد روى الإمام أحمد عن عمران بن حصين ، أن النبي ﷺ أبصر على عضد رجل حلقة - قال : أراها من صفر - فقال : « ويحك ما هذه » ؟ قال : من الواهنة تزيدك قال : « ألا إنها لا تزيديك إلا وهناً ، انبذها عنك فإنك لو مت وهي عليك ، ما أفلحت أبداً » .

وانما غلّظ ﷺ في الانكار على الرجل ، تحذيراً من الشرك بكل صوره وتعليماً للصحابة أن يسدوا هذا الباب جملة وتفصيلاً.

ولهذا حين دخل حذيفة بن اليمان على مريض يعوده ، فوجد في عضده سيراً أو خيطاً يدفع به الحمى لم يسعه إلا أن قطعه ،

ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُـــؤْمِنُ أَكْـثَـرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُشْرِكُونَ ﴾ [1] .

- تعليق التمائم :

ومن هذا الباب تعليق التمائم ، وهى جمع تميمة ، وهى خرزة أو خرازات كان العرب يعلقونها وخاصة على الأولاد ، زاعمين أنها تدفع عنهم الجن أو تقيهم العين ونحوها ، فأبطلها الإسلام، وعلمهم أن لا دافع ولا مانع إلا الله تعالى .

روى أحمد عن عقبة بن عامر مرفوعاً : « من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له » . وفي رواية : « من تعلق تميمة فقد أشرك » ومعنى « تعلق تميمة » أى علقها متعلقاً بها قلبه في طلب خير أو دفع شر .

وانما كانت شركاً ، لأن فيها طلب دفع الضر من غير الله تعالى . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [2] .

ومن هذه التمائم ما يُســـمى « الجامعة » أو « الحرز » أو « الحجاب » أو ما شابه ذلك من الأسماء ، فكلها من كبائر المنكرات ، وإزالتها واجبة على كل مستطيع . جاء عن سعيد بن

---

(1) يوسف : ١٠٦   (2) الأنعام : ١٧

جبير : أنه من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة ، أى كمن أعتق رقبة .

فاذا كانت التميمة من آيات القرآن ، أو تشتمل على أسماء اللّه تعالى وصفاته ، فهل تدخل في النهى عن التمائم أم تُستثني منه ويجوز تعليقها ؟

اختلف السَلَف في ذلك ، فبعضهم رَخَّص فيها ، وبعضهم منع . والذي نختاره هو المنع من التمائم كلها وإن كانت من القرآن ، لعدة أدلة :

أولا : عموم النهى عن التمائم ، فان الأحاديث لم تستثن منها شيئاً .

ثانياً : سد الذريعة ، فإن الترخيص في تعليق التمائم إذا كانت من القرآن ، يفتح الباب لتعليق غيرها . وباب الشر إذا فُتِحَ لا يُسَد .

ثالثاً : أن هذا يُعَرِّض القرآن للامتهان ، حيث يحمله من علّقه في الأماكن النجسة،وفي وقت قضاء الحاجة وفي حالة الجنابة والحيض ونحوها .

رابعاً : أن في ذلك استخفافاً بالقرآن ومناقضة لما جاء له ، فإن اللّه أنزله ليهدي الناس للتي هى أقوم ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، لا ليتخذ تمائم وأحرازاً للنساء والأطفال .

- الرُّقَى :

وبما ينافي التوحيد : الرقى وهى كلمات وتمتمات كان يتعاطاها أهل الجاهلية معتقدين أنها تدفع عنهم الآفات ، مستعينين بالجن أو مرددين بعض الأسماء الأعجمية أو الألفاظ غير المفهومة . فجاء الإســـلام فأبطل ذلك ، كما في الحديث : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » .

وقد جاء في الأثر : أن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه رأى يوماً في عنق زوجته خيطاً فسألها : ما هذا ؟ فقالت : خيط رُقِيَ لي فيه من الحمى .. فجذبه نقطعه فرمى به ، ثم قال : لقد أصبح آل عبد الله أغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أن الرقى والتمائم والتوِلَة شرك » فقالت : لقد كانت عيني تقذف ، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي فاذا رقى سكنت، فقال عبد الله : إنما ذلك عمل الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فاذا رقى كف عنها ، إنما كان يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله ﷺ يقول : « أذهب البأس رب الناس ، واشف أنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً » .

فالرقى المحرمة ما كان فيها استعانة بغير الله تعالى ، أو كانت بغير اللسان العربي،فإنه ربما كان كفراً أو قولاً يدخله الشرك .

وما عدا ذلك فلا بأس بالرقية به . ففي صحيح مسلم عن عوف بن مالك قال : كنا نرقى في الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله ، كيف ترى في ذلك ؟ فقال : « اعرضوا على رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً » .

وقال السيوطي : فقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط :

١ - أن تكون بكلام الله أو بأسمائه أو صفاته .

٢ - وباللسان العربي وما يُفهم معناه .

٣ - وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها ، بل بتقدير الله تعالى.

والتوِلَة المذكورة في الحديث هي ضرب من أعمال السحرة لتحبيب الرجل إلى امرأته أو المرأة إلى زوجها .

- السحر :

ومن الشرك الذي حذّر منه الإسلام : السحر ، وهو ضرب من التخييل والإيهام ، ومنه ما هو عزائم ورقى وعقد ونفث .

وإنما كان شركاً لأن فيه استعانة بغير الله تعالى من الجن والشياطين أو الكواكب ونحوها ، ولهذا جاء في الحديث : « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر . ومن سحر فقد أشرك » ، وهو

من كبائر الذنوب في الاسلام وفي الأديان السماوية كلها ، جاء في القرآن على لسان موسى عليه السلام قوله : ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ (١) . ﴿ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢) .. وقد عدّه النبي ﷺ في السبع الموبقات بعد الشرك .

وعلّمنا القرآن أن نستعيذ بالله من شر السحر وأهله ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ (٣) أى السواحر ، فإن السحرة إذا أرادوا عمل السحر ، عقدوا الخيوط ، ونفثوا على كل عقدة حتى ينعقد ما يريدون . ومعنى النفث : النفخ مع شيء من الريق.

وقد ذهب كثير من أئمة السلف إلى أن الساحر كافر ، وأن السحر كفر ، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد رضى الله عنهم .

وجاء عن عدد من الصحابة أن عقوبة الساحر ضربه بالسيف .

ففي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال : كتب إلينا عمر ابن الخطاب ، أن اقتلوا كل ساحر وساحرة . قال : فقتلنا ثلاث سواحر.

وصح قتل الساحر عن حفصة أم المؤمنين ، وعن جندب من الصحابة رضى الله عنهم .

وفرق بعضهم بين من يستعين في سحره بالكفر فيكفر ، وإلا فهو فاسق.

---

(١) طه : ٦٩
(٢) يونس : ٨١
(٣) الفلق : ٤

وكما أن السحر حرام فان المصدق لأهله ، الساعي إليهم لعمل السحر ، شريك لهم في الإثم ، قال ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة ، مدمن الخمر ، ومصدق بالسحر ، وقاطع الرحم » (رواه أحمد وابن حبان في صحيحه).

- التنجيم من السحر :

ومن أنواع السحر ما يُعرف باسم التنجيم ، والمراد به هنا ما يزعم أهله أنهم يعرفون ما يخبئه المستقبل من أحداث عامة وخاصة عن طريق النجوم والنظر فيها . وهذا ضرب من السحر والدجل ، جاء في الحديث : « من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر » . (رواه أبو داوود بإسناد صحيح).

وليس هذا الحديث فيمن يتعلم من علم النجوم أبعادها ومنازلها وأحجامها ومداراتها ونحو ذلك بما يُعرف بالملاحظة وآلات الرصد ونحوها . وهو ما يُعرف باسم « علم الفلك ».. فهذا علم له أصوله وقواعده ووسائله .

ولكن هذا الحديث فيمن يتعلم من هذا العلم ما يؤدي إلى الكفر ، كادعاء معرفة الغيب ، فهذا من السحر والشرك ، إذ لا يعلم الغيب إلا الله .

- التِوَلة سحر وشرك :

ومن السحر ما شاع من قديم بين السحرة ، وهو كتابة بحروف وكلمات وتعليق بعض الأشياء ونحو ذلك . بدعوى تحبيب المرأة الى الرجل ، أو تحبيب الرجل إلى المرأة .

وقد سبق في الحديث : « إن الرقى والتمائم والتِوَلة شرك ».

- الكهانة والعرافة :

ومثل المنجم الكاهن والعرّاف .

والكاهن هو الذي يُخبر عن المغيبات في المستقبل ، أو هو الذي يُخبر عما في الضمير .

والعرّاف اسم للكاهن والمنجم والرّمال ومن شابه هؤلاء من كل من يدعي معرفة المغيبات ، سواء ما يكنه المستقبل أو ما يكنه الضمير . وسواء أكان ذلك عن طريق الاتصال بالجن أم النظر أو الخط في الرمل أو قراءة الفنجان أو خلاف ذلك .

روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال : « من أتى عرافاً ، فسأله عن شيء فصدّقه ، لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً ».

وروى أبو داوود عنه ﷺ : « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد - ﷺ » .

وذلك لأن مما أُنزل على محمد ﷺ أن الغيب لا يعلمه إلا الله، قال تعالى : ﴿ قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوات والأَرضِ الغَيْبَ إلاَّ اللَّهُ ﴾ (١) ، ﴿ وَعِنْــدَهُ مَفَاتِــحُ الغَيْــبِ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ ﴾ (٢) ، ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ (٣) .. حتى النبي ﷺ لم يكن ليعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله عن طريق الوحي . ولهذا خاطبة بقوله : ﴿ قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَراًّ إلاَّ ما شَــاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّــنِيَ السُّوءُ ، إنْ أَنَا إلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) .

كما أن الجن الذين يستعين بهم الســـــحرة والكهنة ليس لهم قدرة على معرفة الغيب ، وقد ذكر القرآن عن جن سليمان أنهم لم يعلموا موت سليمان : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المُهِينِ ﴾ (٥) .

---

(١) النمل : ٦٥ — (٢) الأنعام : ٥٩

(٣) الجن : ٢٦ - ٢٧ — (٤) الأعراف : ١٨٨

(٥) سبأ : ١٤

ولهذا كان تصديق الكهنة والعرافين - في زعمهم معرفة الغيب - كفراً بما أنزل الله من آيات بينات .

وإذا كان إتيان هؤلاء وتصديقهم بهذه المنزلة من الشناعة في الدين ، فما بالك بهؤلاء الكهنة والعرافين أنفسهم ؟ إنهم براء من الدين كما أن الدين برىء منهم ، جاء في الحديث : « ليس منّا من تطيّر أو تُطِير له ، أو تَكهن أو تُكهِن له ، أو سَـــحر أو سُحِر له » . (رواه البزار بإسناد جيد) .

- النذر لغير الله :

ومن الشرك النذر لغير الله تعالى ، كالنذر للقبور وأصحابها . ذلك أن النذر عبادة وقُربة ، والعبادة لا يجوز أن تُوجه الا الى الله تعالى . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُم مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِنْ نَـــذْرٍ فَإِنَّ اللهُ يَعْلَمُهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (١) . والمراد بالظالمين في الأية : المشركون . فان الشرك ظلم عظيم ، ومن قصد بالعبادة غير الله تعالى فقد أشرك .

قال بعض العلماء : النذر الذي ينذر له أكثر العوام - على

---

(١) البقرة : ٢٧٠

ما هو مُشَاهَد - كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة فيأتي إلى مقبرة بعض الصالحين ، ويقول : يا سيدي فلان ، إن رد الله غائبي أو عُوفي مريضي أو قُضِيت حاجتي فلك من الذهب كذا ، أو من الطعام كذا ، أو من الشمع والزيت كذا - فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه :

منها : أنه نذر لمخلوق ، والنذر للمخلوق لا يجوز ، لأنه عبادة والعبادة لا تكون لمخلوق .

ومنها : أن المنذور له ميت ، والميت لا يملك .

منها : أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله واعتقاد ذلك كفر .

ثم قال : إذا عَلِمتَ هذا ، فما يُؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها ويُنقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليها فحرام بإجماع المسلمين .

وإذا كان هذا النذر حراماً ، فلا يلزم الوفاء به ، بل لا يجوز لثلاثة أدلة :

الأول : أنه جاء على غير أمر النبي ﷺ وقد قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » (رواه مسلم) .

الثاني : أنه نذر لغير اللّه فهو شرك ، والشرك لا حُرمة له ، فهو مثل الحلف بالمخلوقات ، لا يـجب الوفاء به ، ولا كفارة فيه، وليس فيه إلا الاستغفار ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية .

الثالث : أنه نذر معصية ، وقد بيَّنت السنة أن كل نذر اشتمل على معصية أو شرك لا يلزم الوفاء به ، بل لا يجوز الوفاء به ، ففي صحيح البخاري عن عائشة مرفوعاً : « من نذر أن يطيع اللّه فليطعه ، ومن نذر أن يعصي اللّه فلا يعصه » .

وعن ثابت بن الضحاك : أن رجلا نذر أن ينحر ابلا ببوانة ، فسأله النبي ﷺ فقال :« هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد »؟ قالوا : لا . قال :« فهل كان فيها عيد من أعيادهم »؟ قالوا : لا . فقال رسول اللّه ﷺ : « أوف بنذرك . فإنه لا وفاء لنذر في معصية اللّه ، ولا فيما لا يملك ابن آدم ». (رواه أبو داوود) .

- الذبح لغير اللّه :

ومن الشرك : تقديم القرابين وذبح الذبائح لغير اللّه تعالى .

فقد جرت عادة المشركين في كل أمة أن يتقربوا بذبائحهم الى آلهتهم وأصنامهم . فأبطل الإسلام ذلك وحرم ﴿ مَا أُهِلَّ لِغَيْرِ

اللّه به ﴾ (١) أي ما ذُكِرَ عليه اسـم غير اللّه من صنم أو نحوه ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ (١) أى ما نُصِـبَ من حجـر أو شجر أو صنم ليُعبد أو يُعَظّم أو يُتبرك به . وأمر أن يكون الذبح للّه وحده .

ولهذا أمر اللّهُ رسـوله أن يجعل صلاته ونحره للّه : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ (٢) ، وأن يعلن في المشركين ، أن هديه مخـالـف لهم في صلاته ونُسُكه : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ﴾ (٣) . والنسك هو الذبح بقصد التقرب .

وعن عليّ رضى اللّه عنه قال : حدثني رسول اللّه ﷺ بأربع كلمات : « لعن اللّه من ذبح لغير اللّه ، لعن اللّه من لعن والديه ، لعن اللّه من آوى محدثاً (٤) ، لعن اللّه من غيَّر منار الأرض » (٥) . (رواه مسلم) .

---

(١) المائدة : ٣ - بلفظ : ﴿ وما أهل ..... ﴾ .

(٢) الكوثر : ٢ (٣) الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣

(٤) آوى محدثا : حمى مجرماً يسـتحق العقاب بأن تستر عليه أو نصره بنفوذه وسلطانه .

(٥) غير منار الأرض : أى معالمها وحدودها . وذلك ليدخل في ملكه ما ليس من حقه .

وعن طارق بن شهاب : أن رسول الله ﷺ قال : « دخل الجنة رجل في ذباب ، ودخل النار رجل في ذباب »- أي بسبب ذباب - قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال :« مر رجلان على قوم لهم صنم ، لا يجوزه أحد حتى يُقَرِّب إليه شيئاً ، فقالوا لأحدهما: قَرِّب . قال : ليس عندي شيء أُقَرِّب ، قالوا له : قَرِّب ولو ذباباً .. فقرَّب ذباباً ، فخلُّوا سبيله ، فدخل النار،وقالوا للآخر : قَرِّب .. فقال : ما كنت لأُقَرِّب لأحد شيئاً دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه ، فدخل الجنة » (رواه أحمد).

أثنى النبي ﷺ على هذا الرجل المؤمن وأخبر عن دخوله الجنة ، لأنه صبر على القتل ، ولم يرض بتقديم أى شيء لغير الله عز وجل . لأن القضية قضية مبدأ قبل أى شيء . ومن قبل أن يُقَدِّم لغير الله ذباباً أوشك أن يُقَدِّم بعد ذلك جملا !

ومن حرص الإسلام على التوحيد ومجانبة الشرك : أنه أمر ألا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله . كما في حديث ثابت بن الضحاك السابق في الرجل الذي نذر أن ينحر إبلاً ببوانة .

- الطيرة شرك :

ومن الشرك « الطِّيرة » ، ومعناها التشاؤم ببعض الأصوات المسموعة أو الأشياء المرئية أو نحو ذلك ، فإذا رده شيء من ذلك عن حاجته التي عزم عليها كسفر أو زواج أو تجارة أو نحو ذلك ، فقد دخل في الشرك لأنه لم يخلص توكله على الله ، ولأنه التفت إلى سواه ، وجعل للتطير في قلبه نصيباً .

روى الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال : « من ردته الطِّيرة عن حاجته فقد أشرك » ، فقالوا : فما كفارة ذلك ؟ قال : « أن تقول : اللّهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك » .

وأما ما يجده الإنسان في نفسه من انقباض أو توجس للشر من بعض الأشياء فلا يؤثر ولا يضر ، إذا مضى في طريقه متوكلاً على الله ، ولم يرده التطـيـر عن قصده وغايته . روى أبو داوود والترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً : « الطيرة شرك ، الطيرة شرك ، وما منا ، إلاّ .. ولكن يذهبه الله بالتوكل » .

ومعنى « وما منا إلاّ .. » أى ما منا أحد إلا وقر في قلبه شيء من ذلك بمقتضى الضعف البشري ، ولكن مزية المؤمن أن

الله يُذهب من قلبه تلك الخواطر من أثر توكله على الله : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (١) .

وضد الطِّيرة : الفأل . وهو توقع الانسان الخير ، بناء على كلام سمعه أو شيء أبصره أو نحو ذلك .

وكان النبي ﷺ يحب الفأل الحسن ، ففي الحديث : « يعجبني الفأل . قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة » .

مثال التفاؤل : أن يكون رجل مريض ، فسمع آخر يقول : يا سالم ، فيتفاءل بالسلامة والصحة .. فهذا أمر حسن ، لأنه داع الى سعة الأمل وحسن الظن بالله تعالى ، بخلاف الطيرة فإن فيها سوء الظن بالله تعالى وتوقع البلاء من غير سبب يُفضي إليه .

* * *

---

(١) الطلاق : ٣

الإسلام يسد المنافذ إلى الشرك

لقد جاء الإسلام بالتوحيد الخالص ، وحارب الشرك أكبره وأصغره ، وحذّر منه أشد التحذير ، واتخذ لذلك وسائل شتى ، أبرزها سد كل المنافذ التى تهب منها ريح الشرك .

من هذه المنافذ ما يأتي :

• الغلو في تعظيم النبي ﷺ :

نهى النبي ﷺ - عن الغلو في تعظيمه ومدحه فقال: « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » (متفق عليه) .

والقرآن الكريم أثنى عليه ﷺ بالعبودية لله في أشرف المقامات ، تأكيداً لهذا المعنى كقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجاً ﴾ [1] ، وقوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ [3] .

---

(١) الكهف : ١ (٢) الاسراء : ١ (٣) النجم : ١٠

وكان صلوات الله عليه إذا رأى أو سمع ما يؤدي إلى الغلو في شخصه ، زجر من قال ذلك أو فعله ، ونبهه إلى الحق والسداد .

روى أبو داوود بسند جيد عن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه قال : انطلقت في وفد بني عامر إلى رسـول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا .. قال : « السيد الله تبارك وتعالـى » .

وعن أنس أن أناساً قالوا : يا رسـول الله ، يا خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، فقال : « يا أيها الناس ، قولوا بقولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان .. أنا محمد عبد الله ورسوله . وما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل » (رواه النسائي بسند جيد) .

ولما قال له رجل : ما شاء الله وشئت قال : « أجعلتني لله ندا ؟ قل : ما شاء الله وحده » . (رواه النسائي) .

* * *

• الغلو في الصالحين :

ومما نهى عنه الإسلام وحذّر منه ، الغلو في شأن الصالحين .

فقد غلا قوم في شأن المسيح حتى جعلوه أبناً لله ، أو ثالث ثلاثة ، وقال بعضهم : إن الله هو المسيح ابن مريم .

وغلا قوم في أحبارهم ورهبانهم فاتخذوهم أرباباً من دون الله ، من هنا حذَّر الله من غلو أهل الكتاب وشنَّع عليهم في ذلك فقال : ﴿ ياأَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إلاَّ الحَقَّ ﴾ [1] . ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾[2] .

وأول شرك وقع في الأرض - هو شرك قوم نوح - كان سببه الغلو في الصالحين . جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس في الحديث عن آلهتهم « ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر » قال: « هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً ، وسموها بأسمائهم . ففعلوا .. ولم تُعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونُسِيَ العلم ، عُبِدَت » .

---

(١) النساء : ١٧١ (٢) المائدة : ٧٧

وقال بعض السَلَف : لما ماتوا عَلّقوا على قبورهم ، ثم صوّروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم .

ومن هنا نعلم أن غلو بعض المسلمين فيمن يعتقدون صلاحهم وولايتهم الله ، وبخاصة أصحاب الأضرحة والمزارات - يؤدي إلى أنواع من الشرك ، كالنذر لهم والذبح لهم والاستعانة بهم ، والإقسام بهم على الله ونحو ذلك ، وقد يفضي بهم الغلو إلى الشرك الأكبر وهو اعتقاد أن لهم سلطة وتأثيراً في الوجود ، وراء الأسباب والسنن الكونية ، فيُدْعَون من دون الله أو مع الله ، وهذا هو الإثم العظيم والضلال البعيد .

* * *

● تعظيم القبور :

ومما حذّر منه الإسلام أشد التحذير . تعظيم القبور ، وبخاصة قبور الأنبياء والصالحين ، ولذلك نهى عن جملة أشياء تفضي إلى تعظيم القبور منها :

١ - إتخاذها مساجد :

روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال قبل أن يموت

بخمس : « ألا إنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، إني أنهاكم عن ذلك ».

وعن عائشة وابن عباس قالا : « لما نزل برسول الله ﷺ - أى في حالة الاحتضار - طفق يطرح خميصة له على وجهه . فاذا اغتم كشفها ، فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يُحَذِّر ما صنعوا . (متفق عليه) .

٢ - الصلاة إليها :

ففي الحديث : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » (رواه مسلم) .

أى لا تجعلوا القبور في اتجاه القبلة .

٣ - إضاءتها وإيقاد السرج عليها :

في الحديث : « لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج » . (رواه أحمد والترمذي وغيرهما) .

٤ - البناء عليها وتجصيصها :

روى مسلم عن جابر قال : « نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر ، وأن يُقعد عليه وأن يُبني عليه بناء » .

٥ - الكتابة عليها :

لحديث جابر : « أنه ﷺ نهى أن تُجصص القبور وأن يُكتب عليها » (رواه أبو داوود والترمذي) .

٦ - تعليتها ورفعها :

لحديث عليّ : « أن النبي ﷺ بعثه وأمره ألا يدع قبراً مشرفاً إلا سوّاه » . (رواه مسلم) .

كما جاء في سنن أبي داوود نهيه عليه الصلاة والسلام أن يزاد عليها غير ترابها من الأحجار والآجر ونحوها . ولهذا كان السَلَف يكرهون الآجر على قبورهم .

٧ - إتخاذها عيداً :

روى أبو داوود عن أبي هريرة مرفوعاً : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبري عيداً ، وصلّوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم » .

وروى أبو يعلي بسنده عن عليّ بن الحسين ، أنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرجة كانت عند قبر النبي ﷺ . فيدخل فيها ويدعو ، فنهاه وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته عن أبي عن

جدي عن رسول الله ﷺ قال : « لا تتخذوا قبري عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم » ومعنى اتخاذ القبر عيداً قصده للاجتماع فيه والقعود عنده ونحو ذلك .

وقبر رسول الله ﷺ هو أفضل قبر على وجه الأرض ، فإذا نهى عن اتخاذه عيداً فقبر غيره أولى بالنهي ، كائناً من كان . ويكفي أن يُصَلِّي ويُسَلِّم على الرسول ﷺ فتصله صلاته وسلامه حيثما كان .

* * *

• الحكمة في هذا التحذير :

والحكمة في نهي الإسلام عن تعظيم القبور أنه ذريعة إلى الشرك الأصغر والأكبر كما رأينا في قوم نوح ، وكما هو مشاهد إلى اليوم . فالغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً معبودة ولهذا قال ﷺ : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » (رواه مالك) .

ومما يأسف له كل مسلم غيور على دينه أن ما حذَّر منه الرسول ﷺ قد وقع فيه كثير من أهل الإسلام . فقد اتخذوا

قبور بعض الصالحين أعياداً ، وشيدوها وزخرفوها ، وبنوا عليها المساجد والقِباب ، وأوقدوا عليها السُرج والقناديل ، ووقفوا لذلك الوقوف ، ونذروا لها النذور ، وطافوا بها كالكعبة ، واستلموها كالحجر الأسود ، وأوسعوا جدرانها لثماً وتقبيلاً ، ومنهم من يسجد لها ، ويُعَفِّر الخدود على ترابها . ويقف خاشـعاً مستكيناً ، يستغيث بأصحابها ، يسأله - مشافهة - قضاء الديون ، وتفريج الكربات ، وإغاثة اللهفات ، وشفاء المرضى ، والنصر على الأعداء ، وبعضهم يقدم طلباته مكتوبة في رِقاع إلى صاحب القبر ، وهذا من الشرك الصريح ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله .

* * *

• التبرك بالأشجار والأحجار ونحوها :

ومن الشرك الذي حاربه النبي ﷺ التبرك بالأشجار والأحجار والقبور ونحوها . على اعتقاد أن لها سراً أو بركة خاصة ، ينالها من يتمسح بها ، أو طاف حولها ، أو زارها ، أو جلس إليها .. وهذا مما يُفضي بمن فعله إذا تمادى فيه إلى الشرك

الأكبر . فإن أصنام العرب الكبرى كانت إما صخـرة كاللات ، أو شجرة كالعزى ، أو حجرا كمناة . ولهذا حذّر النبي ﷺ منه وزجر عنه .

وقد روى الترمذي عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين - ونحن حديثو عهد بكفر ، وللمشركين سِدْرَة - شجرة نبق - يعكفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها ذات أنواط .. فمررنا بسِدْرَة فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم - والذي نفسي بيده - كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اجْعَل لَنَا إلهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [1] لتركبن سَنَن من كان قبلكم » . (رواه الترمذي وصححه) .

فالظاهر أنهم كانوا يريدون مجرد التبرك بهذه الشجرة وتعليق أسلحتهم عليها ، فزجرهم النبي ﷺ هذا الزجر الشديد ، سداً للذريعة إلى الشرك .

---

(١) الأعراف : ١٣٨

ومما يؤسف له أن كثيراً من المسلمين قد انحرفوا عن هَدى رسول الله ﷺ وأتبعوا سَنَن من كان قبلهم ، فاتخـــــــذوا لهم « أنصاباً » يتبركون بها ، يتمسحون بها ، ويدعون عندها ، ويتوسلون بها ، ويتعلقون بها ، تعلقاً يشبه تعلق المشركين بالأصنام . وكم في بلاد المسلمين من « ذوات أنواط » مما زجر عنه نبيهم ﷺ .

والواجب على المسلمين وعلى حكامهم وعلمائهم خاصة إزالة هذا المنكر وهدم هذه الأنصاب ومحوها من شجرة أو عمود ، أو قبر أو خشبة ، أو عين أو حجر أو غيرها ، اقتداءً بما فعله النبي ﷺ حين بعث علياً وأمره بهدم القبور المشرفة وتسويتها بالأرض . كما في صحيح مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال : قال لي عليّ رضي الله عنه : « ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ . . ألا أدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشـــرفاً إلا سويته ».

قال الإمام أبو بكر الطرطوسي المالكي : « ولما بلغ عمر رضي الله عنه أن الناس يأتون الشجرة التي بايع الصحابة تحتها رسول الله ﷺ فيصلون عندها ، أرسل فقطعها ، خوفاً على المسلمين من الفتنة » .

فاذا كان هذا فعل عمر بالشجرة التي ذكرها الله في القرآن، وبايع الصحابة تحتها رسول الله ﷺ ، فماذا يكون حكمه فيما عداها من هذه الأنصاب والأوثان التي عظمت الفتنة بها ، واشتدت البلية بها !

وقال الإمام الطرطوسي : انظروا رحمكم الله أينما وجدتم سِدْرَة أو شجرة يقصدها الناس ويُعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قِبَلِها ، ويضربون بها المسامير والخرق ، فهى « ذات أنواط » فاقطعوها .

وعن المبرر بن سويد قال : « صليت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه في طريق مكة صلاة الصبح ، فقرأ فيها : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ ﴾ [1] ، و﴿ لإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾[1] ثم رأى الناس يذهبون مذاهب ، فقال : أين يذهب هؤلاء ؟ فقيل : يا أمير المؤمنين ، مسجد صلى فيه النبي ﷺ فهم يصلون فيه . فقال : إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا ، كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعاً ، فمن أدركته

(١) أى سورة الفيل .

(٢) أى سورة قريش .

الصلاة منكم في هذه المساجد فليصل ، ومن لا فليمض ولا يتعمدها » .

وهذا من فقة عمر رضى الله عنه وحرصه على عقيدة العامة ، وخشيته عليهم من الغلو والانحراف .

* * *

• الألفاظ الموهمة للشرك :

ومما حذّر منه النبي ﷺ الألفاظ التي فيها إيهام للشرك وإساءة للأدب مع الله ، وذلك حماية منه لحمى التوحيد .

(أ) من ذلك قول القائل : ما شاء الله وشاء فلان ، أو باسم الله واسم الأمير ، أو اسم الشعب ، وقد مرّ بنا إنكار النبي ﷺ لمن قال له ذلك . روى حذيفة عنه ﷺ قال : « لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان » . (رواه أبو داوود بسند صحيح) .

(ب) ومن ذلك قولهم : لولا الله وفلان ، أو اعتمدت على الله وعليك ، وما شابه هذه الألفاظ ، قال ابن عباس في تفسير

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَجْعَلُوا للَّهِ أَنْدَاداً ﴾ [1] : الأنداد هو الشرك ، أخفى من دبيب النمل ، على صفاة سوداء ، وفي ظلمة الليل ، وهو أن تقول : واللّه وحياتك يا فلان وحياتي ، وتقول : لولا كلبه هذا لأتانا اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء اللّه وشئت ، وقول الرجل : لولا الرجل وفلان .. هذا كله به شرك » (رواه ابن أبي حاتم) .

(جـ) ومن ذلك التسمى بأسماء اللّه تعالى ، أو بما لا ينبغي إلا للّه .

روى أبو داوود عن أبي شريح أنه كان يُكَنَّي أبا الحكم ، فقال له النبي ﷺ : « إن اللّه هو الحكم واليه الحكم » ، ثم كُنَّى بولده ، شريح أكبر أولاده .

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضى اللّه عنه عن النبي ﷺ قال : « إن أخنع اسم [2] عند اللّه رجل تسمى : ملك الأملاك .. لا مالك إلا اللّه » قال سفيان بن عيينة مثل : « شاهنشاه عند العجم ، لأن معناها ملك الملوك » .

---

(١) البقرة : ٢٢ (٢) أخنع اسم : أوضع اسم وأذله .

وفي رواية : « أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه » .

(د) ومن ذلك أن يسمى الانسان باسم معبد لغير الله، كعبد الكعبة أو عبد النبي ، أو عبد الحسين ، أو عبد المسيح ، ونحو ذلك ، فقد نقل ابن حزم الاجماع على تحريم التسمية بذلك ، باستثناء عبد المطلب .

(هـ) ومن ذلك : سب الدهر عند نزول الشدائد والنكبات بالناس . فإن سب الدهر حينئذ كان نوعاً من شكوى الله تعالى أو السخط عليه ، فإنه هو الذي يُدَبِّرُ الأمر ، ويُقَلِّب الليل والنهار ، وهو الفاعل لكل ما في الكون من أحداث .

ولهذا جاء في الحديث الصحيح : « قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، أُقَلِّب الليل والنهار » .

* * *

آثار التوحيد في الحياة

إن التوحيد الخالص من شوائب الشرك إذا تحقق في حياة فرد أو قامت عليه حياة أمة آتي أينع الثمرات . وحقق أنفع الآثار في الحياة . ومن ثمرات التوحيد وآثاره :

(أ) تحرير الإنسان :

فالشرك بكل صوره ومظاهره ليس إلا امتهاناً للإنسان ، وإذلالاً له ، حيث يلزمه الخضوع للمخلوقات ، والعبودية لأشياء أو أناس لا يَخْلقون شيئاً وهم يُخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نُشوراً .

أما التوحيد فهو في الواقع تحرير للإنسان من كل عبودية إلا لربه الذي خلقه فسوّاه ، تحرير لعقله من الخرافات والأوهام ، وتحرير لضميره من الخضوع والذل والاستسلام ، وتحرير لحياته من تسلط الفراعنة والأرباب والمتألهين على عباد الله .

ولهذا قاوم زعماء الشرك وطغاة الجاهلية دعوات الأنبياء عامة ، ودعوة الرسول خاصة ، لأنهم كانوا يعلمون أن معنى « لا إله إلا الله » : إعلان عام لتحرير البشر ، وإسقاط لكل

الجبابرة من عروش تألههم الكاذب ، وإعلاء لجباه المؤمنين فلا تطأطئ إلا ساجدة لله رب العالمين .

(ب) تكوين الشخصية المتزنة :

والتوحيد يعين على تكوين الشخصية المتزنة ، التي تميزت في الحياة وجهتها ، وتوحدت غايتها ، وتحدد طريقها ، فليس لها إلا إله واحد تتجه إليه في الخلوة والجلوة ،وتدعوه في السراء والضراء ، وتعمل على ما يرضيه في الصغيرة والكبيرة .

بخلاف المشرك الذي تقسمت قلبه الآلهة ، وتوزعت حياته المعبودات ، فحيناً يتجه إلى الله وأحيانا إلى الأصنام ، وحيناً إلى هذا الصنم ، وحيناً إلى ذاك .

ومن هنا قال يوسف عليه السلام : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ ﴾ (1) ، وقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ ؟ (2) مثل المؤمن بعبد له سيد واحد عرف ما يُرضيه وما يُسخطه ، فوقف عند ما يُرضيه واستراح

---

(1) يوسف : ٣٩ (2) الزمر : ٢٩

إليه ، ومثّل المشرك بعبد له أكثر من سيد ، هذا يوجهه إلى الشرق ، وذاك إلى الغرب ، وهذا يأخذه إلى اليمين ، وآخر إلى اليسار ، فهم شركاء متشاكسون ، وهو بينهم مشتت موزع لا ثبات له ولا قرار .

(جـ) التوحيد مصدر لأمن النفس :

والتوحيد يملأ نفس صاحبه أمناً وطمأنينة ، فلا تستبد به المخاوف التي تتسلط على أهل الشرك ، فقد سد منافذ الخوف التي يفتحها الناس على أنفسهم : الخوف على الرزق ، والخوف على الأجل ، والخوف على النفس ، والخوف على الأهل والأولاد ، والخوف من الإنس ، والخوف من الجن ، والخوف من الموت ، والخوف مما بعد الموت ..

أما المؤمن الموحد فلا يخاف شيئاً ولا أحداً الا الله ، ولهذا تراه آمناً إذا خاف الناس ، مطمئناً اذا قلق الناس ، هادئاً إذا اضطرب الناس ، وفي هذا يذكر القرآن حوار ابراهيم مع قومه المشركين حين خوّفوه بأصنامهم وآلهتهم الزائفة ، فرد عليهم متعجباً ومعجّباً بقوله : ﴿ وكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ،

﴿ فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ ، إن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ؟ ! [1] ثم بيَّن سبحانه وتعالى من يستحق الأمن من الفريقين فقال :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ (أى بشرك) أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [2] وهذا الأمن ينبع من داخل النفس لا من حراسة الشرطة .. وهذا أمن الدنيا . وأما أمن الآخرة فهو أعظم وأبقى ، لأنهم أخلصوا لله ولم يخلطوا توحيدهم بشرك .

روى البخاري عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : لما نزلت : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ قلنا : يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه ؟ قال : ليس كما تقولون .. أوَ لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه : ﴿ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [3] ..

فمعنى ﴿ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ : أنهم أخلصوا دينهم لله ، فلم يشوبوا توحيدهم بشرك .

---

(1) الأنعام : ٨١ (2) الأنعام : ٨٢
(3) لقمان : ١٣

(د) التوحيد مصدر لقوة النفس :

والتوحيد يمنح صاحبه قوة نفسية هائلة ، لما تمتلىء به نفسه من الرجاء في الله ، والثقة به ، والتوكل عليه ، والرضا بقضائه ، والصبر على بلائه ، والاستغناء عن خلقه ، فهو راسخ كالجبل ، لا تزحزحه الحوادث ، ولا تزعزعه الكوارث .

كلما ألمت به نازلة ، أو حلت بساحته شدة،رفض اللجوء إلى الخلق ، واتجه بقلبه إلى الخالق ، إياه يسأل ، ومنه يستمد ، وعليه يعتمد ، لا يرجو غيره ، في كشف الضر ، وجلب الخير ، ولا يمد يده إلى أحد إلا إلى الله ضارعاً داعياً منيباً إليه .

شعاره قول النبي ﷺ لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله »، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[1] .

ألا ترىَ الى هود عليه السلام حين خوّفه قومه بكيد الأصنام له

---

(١) يونس : ١٠٧

قال : ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ واشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ ، فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) منطق قوي ، يُعَبِّر عن نفس واثقة ، وعزيمة صُلبة ، وإيمان لا يهن ولا يستكين، وروح لا تعرف الضعف ولا الخوف ، لأنها تستمد قوتها من التوكل على الله ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) .

(هـ) التوحيد أساس الإخاء والمساواة :

وإذا كان التوحيد يُعد أساساً لحرية الإنسان وإشعاره بعزته وكرامته ، فهو أساس أيضاً لإثبات الأخوة الإنسانية والمساواة البشرية ، لأن الأخوة والمساواة لا تتحققان في حياة الناس إذا كان بعضهم أرباباً لبعض . فأما إذا كانوا كلهم عباد الله ، فهذا هو أصل المساواة والإخاء بين الناس . ولهذا كانت دعوة رسول الله ﷺ إلى ملوك الأرض ورؤساء الدول تُختم بهذه الآية الكريمة : ﴿ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ

---

(١) هود : ٥٤ - ٥٦

(٢) الأنفال : ٤٩

اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ (١) .

وكان من أدعية النبي ﷺ عقب الصلوات هذا الدعاء الرائع العظيم : « اللّهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك . اللّهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك . اللّهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة » (٢) .

وهذه الشهادات الثلاث المذكورة من النبي ﷺ يرتبط بعضها ببعض.

فإعلان الأخوة الانسانية العامة - أن العباد كلهم إخوة - مبني على الشهادتين الأوليين : تفرد الله تعالى بالألوهية ، فلا شريك له ولا أرباب معه ، ولا يستحق الخضوع والعبادة غيره .

وعبودية محمد ﷺ لله ، وتبليغه عنه ، ينفي عنه كل شبهة أو رائحة للألوهية ، فليس إلهاً ، ولا ابن إله ، ولا ثلث إله ، كما زعم النصاري للمسيح .

---

(١) آل عمران : ٦٤ (٢) رواه الإمام أحمد من حديث زيد بن أرقم.

وإذا تقررت هاتان الحقيقتان : ألوهية الله وحده ، وعبودية الناس جميعاً له ، وعلى رأسهم محمد رسوله ومصطفاه ﷺ نرتب على ذلك تقرير الحقيقة الثالثة وهي : أن عباد الله إخوة متساوون ، فلا تمييز عنصري ، ولا تفرقة بين الألوان ، ولا تفاضل بالأنساب : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [1] .

* * *

مفاسد الشرك وأضراره

للشرك مفاسد وأضرار كثيرة في حياة الفرد والمجتمع أهمها :

١ - الشرك مهانة للإنسانية :

إنه إهانة لكرامة الإنسان وانحطاط بقدره ومنزلته ، فقد استخلفه الله في الأرض وكرّمه ، وعلّمه الأسماء كلها ، وسخرّ له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، وجعل له السيادة على كل ما في هذا الكون ، ولكنه جهل قدر نفسه وجعل بعض عناصر هذا الكون إلهاً معبوداً يخضع له ويذل ويسجد ، وهو

---

(١) الحجرات : ١٣

سيد الخليقة المكرم ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ والنَّهَارُ والشَّمْسُ والقَمَرُ ، لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ واسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (١) .

وأى إهانة للإنسان أكبر من أن يرى - إلى يومنا هذا - مئات الملايين من البشر يعبدون البقرة التي سخرها الله للإنسان لتخدمه وهى صحيحة ، ويأكلها وهى ذبيحة ، فإذا هى معبود مقدس ؟! ولهذا صوّر القرآن الكريم كيف ينحط الشرك بأهله فقال : ﴿ وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أو تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (٢) .

٢ - الشرك وكر للخرافات :

الشرك وكر للخرافات والأباطيل . لأن الذي يعتقد بوجود مؤثر غير الله في الكون ، من الكواكب أو الجن أو الأشباح أو الأرواح أو غير ذلك ، يصبح عقله مستعداً لقبول كل خرافة وتصديق كل دجال . وبهذا تروج في المجتمع المشرك بضاعة

(١) فصلت : ٣٧ (٢) الحج : ٣١

الكهنة والعرافين والسحرة والمنجمين،وأشباه هؤلاء ممن يدَّعون معرفة الغيب ، والاتصال بالقُوى الخفية في الوجود .

كما يشيع في مثل هذا المجتمع إهمال الأسباب والسنن الكونية ، والاتكال على التمائم والرُقى الشركية والسحر والتولة ونحوها .

٣ - الشرك ظلم عظيم :

الشرك ظلم عظيم . ظلم للحقيقة ، وظلم للنفس ، وظلم للغير.

ظلم للحقيقة ، لأن أعظم الحقائق أن لا إله إلا الله ولا رب غيره ، ولا حَكَم سواه ، ولكن المشرك اتخذ غير الله إلهاً ، وبغى غير الله رباً ، وابتغى غيره حَكَماً .

وظلم للنفس ، لأن المشرك جعل نفسه عبداً لمخلوق مثله أو دونه ، وقد خلقه الله حراً .

وظلم للغير ، لأن من أشرك بالله غيره ، فقد ظلمه ، حيث أعطاه من الحق ما ليس له .

٤ - الشرك مصدر للمخاوف :

والشرك مصدر للمخاوف والأوهام . كما أن التوحيد مصدر

للأمن والطمأنينة . فإن الذي يتقبل عقله الخرافات ويُصَدِّق الأباطيل والتُرهات ، يصبح خائفاً من جهات شتى : من الآلهة وسدنة الآلهة ، ومن الأوهام التي ينشرها هؤلاء السدنة ، والكهنة ، وأتباعهم ، ويروجونها بين الناس . لهذا ينتشر في جو الشرك التطير والتشاؤم والرعب من غير سبب ظاهر كما قال تعالى : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ﴾ (١) .

٥ - الشرك معطل لإيجابية الإنسان :

والشرك مُعَوِّق للعمل النافع ، مُعَطِّل لإيجابية الإنسان واعتماده على نفسه - بعد الله - ذلك لأنه يعلم أصحابه الاتكال على الشفعاء والوسطاء ، فهم يرتكبون الموبقات ، ويقترفون الآثام ، معتمدين على أن آلهتهم ستشفع لهم عند الله .

وهذا ما كان يعتقده مشـــركو العرب في آلهتهم وأصنامهم ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (٢) .

---

(١) آل عمران : ١٥١ (٢) يونس : ١٨

ومثل هؤلاء النصارى الذين يعملون ما شاء لهم الهوى من المنكرت معتقدين أن ربهم - المسيح - قد كفَّر عنهم الخطايا حين صُلِبَ - بزعمهم - وفدى البشر .

٦ - آثار الشرك في الآخرة :

تلك هى آثار الشرك في الدنيا ، أما في الآخرة فيكفي أنه الذنب الذي لا يقبل المغفرة بحال كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً ﴾ (١) .

وليس للمشرك مصير الا النار . أما الجنة فحرام عليه أن يدخلها . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (٢) .

وقال ﷺ : « من لقى اللّه يشرك به شيئاً دخل النار » .

وفي الختام : نستعيذك اللّهم مما استعاذ منه عبدك ورسولك محمد : « اللّهم إنّا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه » .

* * *

---

(١) النساء : ٤٨ . (٢) المائدة : ٧٢

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

لا إله إلا الله . . عنوان التوحيد(٢٧ - ٤١)

الشرك (٤٢ - ٦٦)

الصفحة

الإسلام يسد المنافذ إلى الشرك(٦٧ - ٨٠)

الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتاب المصرية : ٤١٢٣ / ٨٩
الترقيم الدولي : ١ - ١٨٧ - ٣٠٧ - ٩٧٧

طبع بالمطبعة الفنية ــ ت : ٣٩١١٨٦٢

كتب للمؤلف

١ ــ الحلال والحرام فى الإسلام

٢ ــ الإيمان والحياة.

٣ ــ الخصائص العامة للإسلام.

٤ ــ العبادة فى الإسلام

٥ ــ ثقافة الداعية

٦ ــ فقه الزكاة (جزءان).

* سلسلة حتمية الحل الإسلامى :ــ

٧ ــ * الحلول المستوردة
وكيف جنت على أمتنا.

٨ ــ * الحل الإسلامى .. فريضة وضرورة.

٩ ــ * بينات الحل الإسلامى ..
وشبهات العلمانيين والمتغربين.

١٠ ــ مشكلة الفقر، وكيف عالجها الإسلام.

١١ ــ بيع المرابحة للآمر بالشراء.
كما تجريه المصارف الإسلامية.

١٢ ــ الصبر فى القرآن الكريم.

١٣ ــ غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى.

١٤ ــ التربية الإسلامية ، ومدرسة حسن البنا.

١٥ ــ رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد.

١٦ ــ جيل النصر المنشود.

١٧ ــ وجود الله.

١٨ ــ حقيقة التوحيد.

١٩ ــ نساء مؤمنات.

٢٠ ــ ظاهرة الغلو فى التكفير.

٢١ ــ الناس والحق.

٢٢ ــ درس النكبة الثانية.

٢٣ ــ عالم وطاغية.

٢٤ ــ الفقه الإسلامى بين الأصالة والتجديد.

٢٥ ــ عوامل السعة والمرونة
فى الشريعة الإسلامية.

٢٦ ــ الوقت فى حياة المسلم.

٢٧ ــ أين الخلل ؟

٢٨ ــ الرسول والعلم.

٢٩ ــ نفحات ولفحات «ديوان شعر».

٣٠ ــ الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه.

٣١ ــ فتاوى معاصرة.

٣٢ ــ شريعة الإسلام.

٣٣ ــ الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف

٣٤ ــ قضايا معاصرة على بساط البحث.

٣٥ ــ الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية.

٣٦ ــ المنتقى من الترغيب والترهيب
(فى جزءين).

٣٧ ــ الصحوة الإسلامية وهموم الوطن
العربى والإسلام.

٣٨ ــ الفتوى بين الانضباط والتسيب.

٣٩ ــ من أجل صحوة راشدة.

٤٠ ــ الإمام الغزالى بين مادحيه [illegible]